壊れた魂

アキラ・ミズバヤシ

أكيرا ميزوباياشي

روح الموسيقى

ترجمة: محمد آيت حنّا

مكتبة 1316

منشورات تكوين | مرايا
TAKWEEN PUBLISHING

مكتبة 1316 روح الموسيقى

مكتبة
t.me/soramnqraa
28 8 23

الكاتب: **أكيرا ميزوباياشي**
عنوان الكتاب: **روح الموسيقى**
ترجمة: **محمد آيت حنّا**

العنوان باللغة الأصلية: **Âme Brisée**
الكاتب: **Akira Mizubayashi**

تصميم الغلاف: يوسف العبدالله
تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

ر.د.م.ك: 978-9921-723-85-4
الطبعة الأولى - يوليو/ تموز - 2022
3000 نسخة

جميع الحقوق محفوظة للناشر©
©Éditions Gallimard, Paris, 2019

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING

الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة
تلفون: 40 04 81 98 965 +
بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي
تلفون: 60 58 00 11 78 964 +

takweenkw
takween.publishing@gmail.com
TakweenPH
takween_puhlishing
www.takweenkw.com

أكيرا ميزوباياشي

مكتبة 1316

روح الموسيقى

رواية

ترجمة

محمد أيت حنّا

منشورات تكوين | TAKWEEN PUBLISHING | مرايا

إلى أشباح العالم جميعاً
المؤلّف

إلى طارق الخواجي، صوَرُ الصّداقةِ كلّها...
المترجم

Âme (روح) : اسم. مؤنّث.

Musique (موسيقى).

Âme d'un instrument à cordes (روحُ آلةٍ وترية): قطعة خشب صغيرة، متداخلة مع بدن الآلة، تفصلُ بين الصّدر والظّهر، بحيث تحفظ المسافة المطلوبة بينهما، وتضمن انتشارَ الذبذبات ووَحدَتَها.

معجم كنز اللّغة الفرنسية.

إزاء موسيقى شوبرت، تسيلُ الدّموعُ من غير أن تستأذن الرّوحَ؛ إذ تنهال علينا موسيقاهُ قوّةَ انهيالِ الواقع نفسه، من غير أن تتوسّل بالصّورة. إنّنا نبكي، من غير أن ندريَ لبكائنا سبباً؛ نبكي لأنّنا لم نصِر بعدُ إلى ما تعِدنا به هذه الموسيقى، وما نزال فقط في مقام السّعادة التي لا اسمَ لها؛ سعادةِ أن نشعر بأنّ موسيقى شوبرت يكفيها أن تكون كما هي، لتمنحَنا اليقين بأنّنا ذات يومٍ سوف نصير مثلها.

تيودور أدورنو؛ لحظاتٌ موسيقية.

تَرَوٍّ (*)

مكتبة
t.me/soramnqraa

(*) التروي، المقصود بها لحظة الاستجماع والتهيؤ قبل بداية العزف، اخترنا هذه الكلمة تحديدا لأنها تجمع بين الرويّة والارتواء. (الحواشي من وضع المترجم ما لم ترد الإشارة إلى خلاف ذلك).

«الأحد ٦ نوفمبر ١٩٣٨، طوكيو.

ضجيجُ حذاءٍ، حادٌ وقاطعٌ، يرتفعُ، ينخفضُ. أحدهم يمشي. توقّفَ... استأنفَ مشيَه... توقّف مجدّداً. إنّه قريبٌ جداً. أظنُّ أنّني أسمع تنفّسه. صوتٌ خفيفٌ أصدرَهُ شيءٌ لامسَ خشباً. هل وضع شيئاً على المصطبة؟ أنا مختبئٌ في الظّلام، أرتعد من الخوف. الخوف يجمّد أوصالي. صمتٌ. وفجأةً، يتمزّق ستار الظلام. مربّعٌ كبيرٌ لامعٌ ينبثق أمامي. ماذا أرى؟ عيناي مبهورتين تريان جسدَ رجلٍ هائلاً، واقفاً مستقيماً، يرتدي بزّةً عسكريةً خاكية اللّون. لا أرى الرأسَ ولا القدمين. أرى صدرَ البزّة، بأزرارها المصفوفةِ رأسياً، وسيفاً ثقيلاً معلّقاً عند الخصر، والذّراعين والكفّين بارزةً من الكمّين، والقدمين حتّى الرّكبتين كأنّهما جذعا شجرةٍ متينان. يضيءُ النورُ بعنفٍ قدميَّ اللابستين جوربين قطنيّين أخضرين، لم أعُد أستطيع إخفاءهُما. بجانب قدميَّ المتحجّرتين، كتابي... يحدُّ جانبَي غلافِه الأبيضِ شريطٌ برتقاليٌّ رقيق. عنوانُه يبرز في الضّوء

سافراً بلا خجل: **قُل لي كيف ستعيش**. وتحت العنوان اسمُ المؤلّف مطبوعٌ ببنط صغير؛ ثمّ تحت، ببنطٍ متوسّط، اسمُ المجموعة التي يندرج الكتاب فيها: «مكتبة المواطنين الصّغار». هل سيأخذه؟ أسرِع، ينبغي أن تسبقه! كلاّ، يستحسن ألاّ أتحرّك... في جزء من الثانية، مددت يدي اليمنى إلى الكتاب وأمسكت به. ثمّ بهدوءٍ سحبت يدي الرّاجفة... مرّت ثوانٍ طويلةٌ... لا أدري ما يفعل، لم يتحرّك الجسدُ قيد أنملة. أنا خائف. أُغمض عينيّ غريزياً. يتواصل الصّمت. أفتح عينيّ إلى النّصف. وحينئذ ينحني عليّ ببطءٍ، ببطءٍ شديد، كأنّه متردّد، كأنّما لا يدري ما يفعل. انبثق أمامَ عينيَّ رأسُ رجلٍ، يعتمر كيبة عسكرية من لون البزّة نفسه. النّور ينعكس عليه، ويغطّيه ظلٌّ كثيف. ومن حاشية القبّعة تنزل حتّى كتفيه قطعةُ قماشٍ خاكيةٌ أيضاً. العينان فقط تلمعان مثل عيني قطّةٍ تتربّص في الظّلام. تلتقي عيناه بعينيّ اللّتين صارتا الآن مفتوحتين وسعَهُما. إخالُ أنّي أرى ابتسامةً تتشكّل على استحياءٍ، وتنتشر حول العينين. ماذا سيفعل؟ هل سيؤذيني؟ هل سيخرجني عنوةً من مخبئي؟ تكوّمت على نفسي أكثر فأكثر. فجأةً مال جانباً وانحنى قليلاً، ثمّ قام من فوره، حاملاً في يده الكمان التّالف الذي كان قد وضعه، قطعاً، قبل قليل على المقعد، لصقَ الدّولاب الذي أختبئ فيه. ثمّ فجأةً سُمع صوتُ رجلٍ قويٍّ ولحوحٌ، يقترب سريعاً:

- كوروكامي! كوروكامي!

أدار رأسَه تلقائياً كأنّما يتساءل من أين يأتي الصّوت، كأنّما

يحاول أن يحدّد المنادي؛ بينما سرى في وجهه تشنّجٌ عصبيّ. ومن غير أن ينبس بكلمةٍ مدّ إليّ الكمان المكسور، شبه المضغوط، وقد بدا في العتمة، بهيأته المدوّرة وأوتاره الأربعة، مثل حيوانٍ يعاني النّزع. لم أدرِ ما أفعل... ترددتُ... لكن في نهاية المطاف، أخذت مرعوباً الآلة التّالفةَ، بيديّ معاً.

- كوروكامي! أيّها الملازم كوروكامي!

سارع إلى إغلاق الباب وهو يحدّق فيّ مرّةً أخيرة. ثمّ أتبعَ نظرتَه القلقة الذّاهلةَ، ببشائر ابتسامةٍ سرعانَ ما كبحها، إذ اقتربَ الشّخص الذي كان يصرخ منادياً باسمه:

- آه، ها أنت ذا! ماذا تصنع هنا يا كوروكامي؟ هيّا، سنذهبُ، لا وقت لدينا نضيّعه.

- نعم، يا سيّدي النّقيب! كنت أتأكّد ممّا إذا كنّا قد نسينا شيئاً...

وسط عتمة الدّولاب أسمعُ بوضوحٍ صوتَ رجلٍ متيناً، أظنّه صوت الرّجل الذي كان يصيح «كاروكامي!». اندهشتُ من اسم كوروكامي، إذ صَعب عليّ أن أتخيّل أنّ «أسوَد (kuro) الشّعر (kami)» يمكن أن يكون اسماً عائلياً.

نطق الرّجل كلماتٍ لم أتبيَّنها جيّداً، وقد نطقَها بنبرةٍ سلطوية، أو بنبرةِ شخصٍ غاضبٍ أشدّ الغضب. وأجابه صوتُ رجلٍ آخرُ، بنبرةٍ مرتاحةٍ، هادئةٍ، تكاد تكون عذبة. أهوَ صوتُ الرّجل الذي أعطاني الكمان؟

شيئاً فشيئاً ابتعد الصّوتان. وكذلك ابتعدتِ الخطى. وبقيت أنا في العتمة. ثمّ ما لبث الصّمتُ أن ساد، ولم أعد أسمع شيئاً. أو بالأحرى أسمع عند طرف دهليزِ أذنِي الطّويل، الغناءَ الواهنَ العنيدَ لحشرات الزّيز الموشكة على الموت. إنّه الطّنين، كلمةٌ تعلّمتها مؤخّراً من عند والدي. هو صوت الصّمت بمعنى ما. أنظرُ من ثقب القفل. الغرفةُ مظلمة بسبب السّتائر السوداء المسدلة، لكنّ أضواء النيون تنيرها بما يكفي لأدرك أنّه لم يعد ثمّة أحد. كم السّاعة؟ لم يحلّ اللّيلُ بعد، لكنّني بدأت أشعر بالجوع. أرخي أذني... وأقول، بالفعل لم يعد ثمّة أحد. ثمّ أرفع مزلاج الدولاب بأكبر قدرٍ ممكن من الهدوء، وأحاول أن أوارب البابَ، من غير أن أُحدِث أدنى صوت. لكنّ الباب يَصرّ...أقول لنفسي: اصمت! انتظر قليلاً... لا جديدَ، ما يزال المكان صامتاً. لم يعد ثمّة أحد. أنتعل حذائي القماشَ الذي كنت قد نزعتُه كي لا أحدث صوتاً. أغادر مكمني، حاملاً الكمان التالف بيديَّ، وكتابي في جيب سروالي. أخطو خطواتٍ متردّدة، يصعب عليّ المشيُ: نملٌ يسرح على قدميَّ! أتوقّف. أنتظر ثلاث ثوانٍ. ثمّ أواصل مشيي. أعبر الصالة الكبيرة وأتقدّم نحو المخرج. أدفع باب الدّخولِ الثقيلَ بكامل جسدي. أنا الآن أمام مبنى المركز الثقافي البلديّ. أرفع عينيّ إلى السّماء. النّهار يرحل. والعتمة بدأت تشتدُّ. أشعر بنفسي وحيداً، تائهاً. تصعد إلى حلقي شهقاتٌ. تسحقني قوّةٌ سوداءُ، هائلةٌ، تلقي عليَّ بظلال شائهة، تضطهدني. أناسٌ يعبرون الشّارع. وجنودٌ من الشّرطة المدنية يجوبون الطّرقات، حاملين بنادقهم على أكتافهم. لا

أرى حولي أيّ طفل. أين ذهب أبي؟ هل سيعود إلى هنا؟ أم سيقصد المنزل مباشرة؟ أسلُك الشّارع المفضي إلى المنزل. أحثُّ خطايَ... حاملاً الكمان التالفَ كأنّه حيوانٌ محتضرٌ أريد أن أنقذه مهما كلّفني الأمر...».

أنا واقف، مسمّرٌ أمام مذبح الدولاب المشرع على مصراعيه. عيناي مغمضتان. أشمّ خلفي العطر الخفيفَ لحضورٍ أنثويّ. أنزلُ على مهلٍ درجَ الزّمن المظلم...

I

Allegro ma non troppo

١

كانت ظهيرة يوم أحدٍ أشرقت عليها شمسٌ محتشمة. ولدٌ صغيرٌ، تلميذٌ في الحادية عشرة من عمره، يقرأ وحيداً، جالساً على مصطبةٍ بمسندٍ، في صالة الاجتماعات الكبيرة بالمركز الثقافي البلدي. يركّز في كتابه. ولا يبدو أنّ شيئاً يستطيع أن يصرف انتباهه عن الصّفحات التي يقلبها على فترات منتظمة، لفرط ما كانت تسلبه الحكايةُ التي يتابعها، والكلمات التي يتلمّظ بها ساكناً كتمثال. أمّا أبوه، فكان، مرتدياً سترةً بسيطة، يكنس الأرضية التي يملؤها القشُّ. فلمّا أتمّ التّنظيف، وضع جنباً إلى جنبٍ مَقرأين قابلين للطيِّ كان قد حملهما معه من المنزل.

- وإذن يا رِي[1]، هل تجد قصّة كوبر ممتعة؟

لم يستجب رِي. إنّ كوبر، وهو مشتقٌّ من كوبرنيك، هو الشّخصية الرّئيسة في الكتاب: تلميذ يابانيّ في الخامسة عشرة من

(١) Rei، وتُنطق مفصولةً [re-i]. (المؤلف).

عمره. واسمُه بالضّبط كوبر-كون، أي بإضافة اللاحقة اليابانية **كون** التي تفيد التّحبيب والتلطيف.

- تستطيع أن تواصل القراءة بينما نتمرّنُ، لكن حين يصِلون سوف تقول لهم مرحباً! هل فهمت؟

أجاب الطّفل بصوتٍ خفيض، وهو يعبُّ نفساً من الهواء، من غير أن تفارق عيناه كتابَه: - نعم يا بابا!

اتّجه الأب صوب البهو. وما كاد يختفي في الرّواق، حتّى عاد حاملاً صندوقي كرتونٍ كبيرين فارغين، يستعملان في نقل الفاكهة، أحدهما بلون ورق الكرافت، والثاني أصفر مع رَسمةٍ في الجانب تصوِّرُ ثمرة كليمونتين. وضعهما في وضع عموديٍ، أحدهما خلف الآخر، بحيث جعلهما يحدّان المقرأين المعدنيّين. ثمّ توجّه بالقول إلى ابنه:

- أين وصلت؟

- ...

رفع الأبُ صوتَه: - أين وصلت في كتابك يا رِي؟

- أوه، آسف يا بابا... إِه... في صفحة تماثيل بوذا في غا.. ندا... را.

تمتم الولد في نطق كلمة غاندارا[1].

---

(١) منطقة بالهند.

- آه، إنّها اللّحظة التي يشرح فيها العمُّ لكوبر-كون أنّ اليونان هم أوّل من فكّر في صنع تماثيل لبوذا، قبل أن يفكّر في ذلك الأسيويّون... مقطعٌ رائع!

غمغم ريِ وهو ينظر إلى هزالة الصفحات المتبقيّة: - للأسف، قريباً سينتهي!

- ألم يُبكِك الكتاب إذن؟

- أوه، بلى، حين هاجم كيتامي-كون ياماغوشي، دفاعاً عن أوراكاوا-كون. لقد سخر منه الجميع؛ المسكين!

- ياماغوشي وفريقه يسخرون من أوراكاوا-كون بسبب الأبورا-أغوي (التُوفو المقليّ) الذي يوجد كلّ يومٍ في وعائه البنتو[1]، لأنّ والديه من تجّار التوفو. أليس كذلك؟

- بلى. وثمّة مشهدٌ آخر: لا يجرؤ كوبر على الوقوف بجانب رفيقيه... يسيءُ معاملتهُما التلاميذ الأكبر سناً! لم أبكِ، لكنّني كنت غاضباً حانقاً على أولئك الكبار المتغطرسين! يأمرون كِيتَامي-كون بأن يطيعهم! وإلا اعتُبر تلميذاً لا يحبُّ مدرستَه، تلميذاً خائناً!

- آه، نعم، ذاك مشهدٌ مثيرٌ! لكن، ألم يعجبك ما تلاه؟ ثمّة صفحاتٌ جميلةٌ جداً تصف معاناة كوبر، بسبب جبنه تحديداً

(١) البنتو: الوعاء المجمّع الذي يستعمل في المطبخ الياباني، وهو إنّاء مقسّمٌ توضع فيه كميات قليلةٌ من أطعمة مختلفة.

... ثُمّ أمّه التي كانت شديدة اللّطف معه! أتعلم أنّ أمّ كوبر تذكّرني بأمّك؟

- نعم، نعم، حين تحدّثُه أمّه عمّا لم تستطع أن تقوم به، بدافعٍ من خجلٍ أو جُبن، إزاء الجدّة التي كانت تصعد درج المعبد حاملةً في يدها صُرّة كبيرة... يبكيني المشهد... كوبر فقد أباه، وأنا فقدت أمّي... نحن متشابهان بعض الشّيء...

- أقول لك يا رِي، سأسعد بالحديث معك في هذا الكتاب، حين تنتهي من قراءته...

وكان ريِ قد غرق فيما تبقّى من صفحاتٍ، فلم يُجب.

وتلك هي اللّحظة التي سُمع فيها وقع أقدام في الصّالة. دخل القاعةَ رجلٌ في الأربعينات من عمره، أميَل إلى أن يكون طويلاً، أشقر الشّعر. وكان يرتدي بزّةً بيج، ويلفّ حول عنقه إيشارباً من قطن أزرقَ.

- مرحبا يا يو. كيف الحال؟ عرفتُ أنّك هنا، فقد قُلت لي إنّك ستتمرّنُ مع أصدقائك الموسيقيّين...

أجاب يو بفرنسية مرتبكة، لكن سليمةٍ تماماً: - آه! مرحباً يا فيليب! يا لها من مفاجأة! ما الذي أتى بك؟ لم أكن أتوقع أن أراك هنا.

- إيه...

- تبدو مشغول البال يا فيليب...

لاحظ الزّائر الغريب، من تحت كتفَي يو، الصبيَّ الذي كان قد توقّف عن القراءة، وأخذ يتأمّل حالماً حديث الشّخصين البالغين.

– Rei-kun, genki? Naniwo yonderuno, sugoku omoshiro-soodane, sono hon?

(كيف الحال يا ري؟ ما هذا الكتاب الممتع الذي تقرؤه؟)

كذلك سأل فيليب الولدَ، بيابانيةٍ مفهومةٍ تماماً، على الرّغم من نبرةٍ كان لها وقعٌ غريبٌ في أذن رِي. ومن غير أن ينتظر فيليب من ري الجواب الذي كان الصبيُّ يتأهّبُ لقوله، أدار وجهه وحدّق في عينيّ يو؟

– لقد قرّرتُ أنا وزوجتي العودة إلى فرنسا. الحياة هنا صارت صعبةً عليّ... طلبت إعادتي إلى فرنسا. ولن يتأخّر قرار الجريدة... والحقُّ أنّي كنت أريد الحديث معك في هذه الأمور، لكنّك الآن مشغول...

نظر يو في ساعته.

– نعم، سيأتون في أي لحظة. ألا تستطيع أن تزورني في منزلي هذا المساء؟ أو آتي عندك أنا، إن شئت. أو غداً مساءً إن كان يناسبك.

أجابه فيليب بعد برهة تردّد: – حسناً، سأمرُّ ببيتك هذا المساء، لكن في وقت متأخّر بعض الشّيء، بين الثامنة والثامنة والنّصف، إن لم يكن الأمر يزعجك.

وكان الأشخاص الذين ينتظرهم يو قد دخلوا التوّهم إلى الصّالة: رجلان وامرأةٌ، أعمارهم بين الخامسة والعشرين والثلاثين. حيّاهم يو بانحناءةٍ، وصافحهم. ثمّ قدّم إليهم فيليب، مضيفاً أنّه مراسل صحيفةٍ فرنسية. وكان أصدقاء يو صينيِّي الجنسية. أصغرُ الثلاثة يسمّى كانغ (康)، وكان يحمل بيده اليسرى كماناً مخبّأً في غمده. والشّابة المدعوّة يانفِن (砚芬) كانت عازفة ألتو (كمان متوسّط)، لذا تراها تحمل غمداً أكبر بقليلٍ من غمد كانغ. أمّا الثالث الذي يبدو أكبرهم سنّاً، بلحيته وجبهته العريضة، فكان يحمل على كتفيه، بمرحٍ، صندوق تشيلو. وكان اسمه شِنغ (成). والشّبّان الثلاثة موسيقيون هواةٌ ينتمون إلى الفئة النادرة من الطلبة الصينيّين الذين لم ينغلقوا ضمن الرؤية القومية الضيّقة التي تفاقمت مع العداء المتنامي منذ حادثة منشوريا سنة ١٩٣١، بين بلادهم الوسطى[١] المحتلَّةِ، والإمبراطورية اليابانية التي انخرطت في التوسّع الاستعماريّ.

قال شنغ ليو بيابانية سلسة، وفي وجهه العريض تُزهر ابتسامةٌ:

– Mizusawa-san, kyowa oisogashii no dewa naïdesuka

(يبدو أنّك مشغول اليوم يا سيّدي ميزوساوا؟)

لاحظ يو أنّ شنغ يرمي صديقَه الصّحفيَّ بنظرةٍ عابرة.

– Iya, sonnakoto wa arimasen, Cheng-san. Filippusan towa atode hanashimasukara goshinnpai naku

(١) البلاد الوسطى هي الصّين.

(كلا، لا تقلق يا شنغ، أنا تحت أمرك. سيكون لدي ما يكفي من الوقت لاحقاً للحديث إلى صديقنا فيليب).

وكان يو يضيفُ في نهاية كلّ اسم ينطق به اللاحقةَ san (سان)، وهي صيغة تهذيب محبّبة؛ مثلما فعل شنع حين نطق باسمِ يو العائليّ: ميزوساوا.

- سوف أبقى قليلاً لأسمع عزفكم. لا تكترثوا لأمري. شكراً يا يو.

- شكراً يا فيليب. موعدنا إذن مساءً.

- نعم.

ذهب يو إلى المخزن الموجود قريباً من المصطبة ذات المسند، فجلب منه مقعدين. وفي طريقه قال لابنه الشّاردِ عمّا يجري حوله.

- إنّهم هنا يا رِي. فهلّا قلت لهم مرحباً!

قام الصبيُّ، ونظر إلى أصدقاء أبيه الصينيّين الثلاثة، المنهمكين في إخراج آلاتهم.

قال لهم رِي بصوتٍ واضح، وهو يحيّيهم بانحناءات صغيرة:

- Konnichiwa! (مرحبا!).

أجابه الموسيقيون الصينيون في وقت واحد. رفع الرّجلان يديهما تحيّةً، بينما ابتسمت له المرأة ابتسامةً مشرقة، وقالت إنّ الفضول يستولي عليها لمعرفة عنوان الكتاب القادر على شدّ انتباهِه

بهذه القوّة. دهش رِي من جمال الصّوت الأنثويّ العذب، كما من الكلمات اليابانية التي نطقتها دفعةً واحدةً، بلا انقطاع. أخذ ينظر إلى المرأة الشّابة. كانت ترتدي فستاناً بنيّاً داكناً يُبرز منحنيات جسدها الرّشيق. ووجهها البيضاويُّ يشعُّ ببياضٍ برّاق. وشعرها الأسود المتوسّط معقودٌ خلف قفاها العاري. عيناها كجوهرتين تعكسانِ في كلّ اتّجاه شعاعَ الشّمس الصباحيّة العذبَ. لم تصبغ بالأحمر شفتيها اللّتين تتحرّكان مثل أوراق خضراء ترتعش كما شاءت لها ريحُ الرّبيع الدافئة. ومن ذقنها ينطلق خيطٌ مُنحنٍ غامضٌ ينتهي إلى رسمِ استدارة صدرها الخفيّة.

وإذ اندهش رِي من نظرته المتلصّصة، سارع إلى استجماع نفسه، وعاد يغوص في الكتاب بانتباهٍ مشتّت، ولم يستطع أن يستعيد خيط القراءة من حيث كان قد تركَه.

وضع يو المقعدين أمام المقرأين. وعاد كانغ من المخزن بمقعدين آخرين وضعهما جنب صندوقَي الكرتون. وأخرج يو بدوره من الغمدِ كمانَه الذي كان قد تركه على الأرضية الخشب بين المصطبة ودولابٍ أوروبيّ كبير مصنوعٍ من خشب الماهوجني المنحوت، وكان الدّولاب طاغيَ الحضورِ وخفياً في آنٍ. ثمّ ذهب تلقائياً يودع الغمد في غرفة التّخزين.

صار الموسيقيّون الآن جالسين أربعتهم، مشكّلين نصف دائرة. يو يؤدّي دورَ الكمان الأوّل؛ كانغ الكمانَ الثاني؛ وبجانب كانغ عازفةُ الألتو يانفِن. ثمّ أخيراً، عازف التشيلو تشِنغ، وقد اتّخذ موضعه

مقابل يو تقريباً، على مسافة مترين منه. ولمّا وضعوا جميعاً دفاتر التوزيع الموسيقي على المَقرأين، أو صندوقَي الكرتون، انصرفوا إلى دوزنة آلاتهم.

وفجأةً توجّه يو إلى ابنه، كأنّما تذكّر شيئاً مهماً:

- عذراً يا رِي، هل تستطيعُ أن تُسدل الأستار السوداء وتشعل الأنوار؟

وهذه المرّة استجاب ري من فوره.

قال يو لفليب: - إنّها المرّة الثالثة التي نتمرّن فيها، لكنّنا ما نزال في الحركة الأولى!

ثمّ سارع يترجم إلى اليابانية ما قاله بالفرنسية، ليفهمه أصدقاؤه الصّينيّون.

قال شِنغ ممازحاً: - لحسن الحظ! نحاول أن نطيل المتعة ما أمكن! لسنا مستعجلين، أليس كذلك!

ضحكوا جميعاً عن طيب خاطرٍ. وكذلك ضحك فيليب، مجارياً الموسيقيّين في مزاجهم الرّائق الذي ظنَّ أنّه استشفَّ فيه جرعةً ضئيلةً من قلقٍ لم يفلحوا في إخفائه.

قال يو للموسيقيّين الثلاثة: - هيّا؟

سادت برهةُ صمتٍ طويلة. ثمّ أعطى كانغ إشارة الانطلاق لعازفة الألتو وعازف التشيلو، بهزّة خفيفة من رأسه، بينما وضع

يو تحت ذقنه آلته البرّاقة من أثر النّور الشّاحب الذي ترسله من السّقف أضواءُ النيون، ومكث منتظراً دخلتَه الوشيكةَ، رافعاً قوسه في الهواء. أخذ كانغ يرسمُ بإيقاع رقيق جداً (بيانيسيمو) لحناً موهناً ينزلق بهدوءٍ على البقبقة المنتظمة لنوتات القرار (البيس) التي يتَساندُ فيها عزفُ يانفِن وعزف تشنغ.

وعلى الفور عرف فليب المقطوعة، إذ لم يكن هاوياً للموسيقى فحسب، وإنّما أيضاً ممارساً يعزف على الكلارينيت مُذ كان مراهقاً. وكانت المقطوعةُ مطلعَ الرباعية الوترية على سلّم لا-صغير، المؤلّف رقم ٢٩ لشوبرت. قال الفرنسي: «روزاموند». مبهوراً بالجمال المُرجِّفِ لتلك الموسيقى التي لم يسمعها منذ زمنٍ بعيدٍ، ظلّ ساكناً دقائقَ عديدة، جالساً على المصطبة بجانب رِي الذي كان، حاملا كتابه مفتوحاً، يحدّق مذهولاً في دفتر الموسيقى المفتوح أمام والده. لكن حين ألقى الصحفيُّ نظرةً إلى ساعته الجيبيّة، قام بهدوء. وضع يده بلطفٍ على رأس رِي ووشوش في أذنه: «باي باي، ماتاني (إلى اللّقاء)!» ثمّ قصد الباب على أطراف أصابعه، من غير أن يلتفت إلى الموسيقيّين المستغرقين في العزف. غير أنّه حين بلغ الباب، استدار، وحدّق لربع ثانيةٍ بعينه النّفاذة القوية، في يو الذي أجابه بابتسامة لا تكادُ تلمح. أمّا الموسيقيّون الصّينيون الثلاثة، فظلّوا مركّزين النّظر في دفاترهم، لم يزعجهم عنها رحيلُ الصّحفيِّ الفرنسيِّ الهادئُ؛ أمّا التلميذ رِي، فكان قد عاد إلى الغوص في كتابه.

٢

إنّ الجوق الرّباعيّ الوتريّ الصيّنو-يابانيّ الذي شُكِّلَ حديثاً لم يكن يحمل بعد اسماً. تأسّس بدافع المتعة الموسيقيّة المشتركة لا غير، بعيداً عن أيّ اعتبارٍ آخر، متجاهلاً أيّ شيءٍ خارج موسيقى شوبرت، في معزلٍ عن بقيّة العالم، مصغياً إلى نفسه والآخرين. وقد صار كلّ عضوٍ من أعضائه الآن يتوغّل، خطوةً خطوةً، في استكشاف الحركة الأولى من **روزاموند**. ويتطلّب أداء هذه الحركة المذهلة، نحو ربع ساعة. ومنذ نصف ساعة تقريباً وهم يشتغلون بحماس، لكنّهم لم يبلغوا بعد غايتهم، لا بل ما يزالون بعيدين جداً. كانوا قد أنهوا عزفَ تكرارِ المقدّمة، لكنّهم لم يكونوا يشعرون بأنفسهم مستعدّين للشّروع فيما يسمّى المرّة الثانية (السيكوندا فولتا)، والذّهاب أبعد. اقترحت يانفِن أن يعيدوا من البداية، ويتوقفوا كلّما أحسوا بأنّ العزف ليس على ما يرام.

- ما رأيكم؟

كان رِي ما يزالُ غارقاً في كتابه، فلمّا سمع رنّة الصّوت الأنثويّ،

رفع رأسَه لينظر إلى الشّابة. كان يتساءلُ كيف لها أن تتحدّث بهذه **السّلاسة**، من دون أيّ نبرة، كأنّها يابانيةٌ حقيقية. كانت تتحدّث بتلقائية، ولطفٍ أثارا فيه دهشةً يخالطها الإعجاب.

قال كانغ باستحياء: - أنا أيضاً أريد أن نعيد من البداية. لست راضياً عن أدائي...

تدخّل تشِنغ: - إنّ الألتو والتشيلو هما أساس البناء في هذا الإيقاع المميّز: «تاا... تاكاتاكاتا.... تاا... تاكاتاكاتا..... تاا... تاكاتاكاتا.....». ويبدو لي أنّنا لسنا متّحدين تماماً مع كانغ-سان...

حين يجد تشِنغ نفسه منخرطاً في محادثة باليابانية مع كانغ ويانفِن، كثيراً ما يستعمل اللاحقة **سان** مضافةً إلى اسميهما. كان معجباً بطابع التحضّر وإحساس المساواة الودود اللّذين يرى أنّ اللاحقة تؤدّيهما.

أجابت يانفِن: - نعم، هذا ما أراه. ينبغي أن نمنح حجم الصّوت شيئاً من الانسجام... إن لم تكن الأسسُ التي نضعها صلبةً، فلن يستطيع الكمان الأوّل أن يقيم عليها اللّحن المحوريّ (التيّمة) الشديد الرّوعة...

قال يو بدوره: - أنت محقّةٌ يا يانفِن-سان.

ثمّ أضاف ببطءٍ كأنّما يفكّر أثناء الحديث، ويختار كلماته اختياراً: - أظنُّ أنّ علينا أن نتّفق حول سرعة الإيقاع التي سوف نعتمدها. لقد دوّن شوبرت **أليغرو ما نون تروبو (إيقاع سريع مرحٍ، دون**

مبالغة). برأيي، ينبغي على الإيقاع أن يكون بطيئاً بما يكفي للتعبير عن ضربٍ من الثقل، وهو ثقلٌ متأصّل في العمل، لكن في الآن نفسه لا ينبغي المبالغة في الثقل، كيلا نسقط في نزعةٍ عاطفية مفرطة.

غمغم تشِنغ وهو ينظر إلى يانفن: - لقد عزفنا بإيقاعٍ مفرطٍ في السّرعة...

أجابه يو: - نعم، أظنُّ ذلك.

ثمّ أضاف: - إنّ اللّحنَ المحوري التي سوف أعزفه هو في اعتقادي التعبير عن الحنين لعالمِ الأمس الذي ربّما يختلط بالطّفولة؛ عالمٌ على أيّ حالٍ هادئٌ ووديع، عالم أشدّ تناغماً من عالم اليوم، بكلّ ما فيه من قبحٍ وعنف. بالمقابل، أتصوّرُ الموتيف (الطّراز) الذي يرسمه الألتو والتشيلو «تاا... تاكاتاكاتا..... تاا... تاكاتاكاتا... ...»، باعتباره الحضورَ العنيدَ للتّهديد الموشك أن يجتاح الحياة التي تبدو هادئة لا اضطراب فيها. واللّحن الذي يقحمُه كانغ-سان يترجِمُ الحزنَ المقلقَ الرّاقدَ في قلوبنا...

قال كانغ: - أحسنت القول يا ميزوساوا-سان!

كان الشّابُّ الصينيّ يرى أنّ التعبير الذي استعمله يو يترجمُ بأمانةٍ الإحساس الذي يشعر به إزاء موتيف البداية، المكلّفِ هو برسمه.

ولم يكن الوقع الذي خلّفته عبارة «حزن مقلق» في نفس يانفِن، بأقلّ من التأثير الذي خلّفه كلام يو في نفس كانغ: لقد تذكّرت

لحناً؛ لحناً يستولي على النّفس، لحنَ البيانو المصاحبَ لقصيدة «**ملك العفاريت**»[1]. لكنّها صمتت عن الكلام.

بادر شِنغ: - هل نعيد؟

وتأهّب الموسيقيّون الأربعة لعزف بداية الحركة الأولى من جديد. وبعد لحظة صمت طويلة، دامت ثوانٍ، أعطى كانغ إشارة الانطلاقة بإيماءة خفيّة من رأسه. وهذه المرّة، بفضل الاهتزازات الإيقاعية الصّغيرة المقلقة التي أدّها الألتو والتشيلو ببطءٍ أشدّ من السّابق، ورسمتها مرونةُ وسلاسةُ الخطّ المتوسّط للكمان الثاني، بدت على نحوٍ أوضحَ آثارُ حزنٍ لا يوصفُ على المنظر الصوتي الشوبرتي.

«دو-مي-دو-سي-دو-مي-لا-مي، دو-مي-دو-سي-دو-مي-لا-مي».

وإذّاك فقط انزلق يو بهدوءٍ وسط الموسيقى، ورسا على الأساس الصّوتي الذي أرسَته الآلاتُ الثلاث بإيقاع رقيق جداً، ولكن بصلابة: عرَضَ بفخامة اللّحن المحوريّ الأوّل الذي كان مرعبَ الجمالِ.

«مي~~~ دو ~ لا ~~، دو ~ سي ~~~-ري - دو - سي - دو - سي - لا - ~ دو~ سي ~~~ سول # ~ دو ~~~ لا ~ ري ~~ ري # ~~ مي ~~~».

(١) قصيدة لغوته، لحّنها شوبرت.

كان يو يعزف مغمض العينين، كأنّما التركيز الجوّانيّ الذي يفصله عن العالم المحيط، يساعده على أن يتوغل في المادة الصّوتية أبعد ما يمكنه التوغّل. وحين فرغ من عرض اللّحن المحويّ، فتح عينيه، واقترح على رفاقه، مستبشراً، أن يحافظوا على الزّخم، ويواصلوا المسير.

أدّى الربّاعيُّ إذن مقدّمة الحركة الأولى، دفعةً واحدة، وحين بلغوا عتبة السيكوندا فولتا (المرّة الثانية)، توقّف الموسيقيون الأربعة تلقائياً، كأنّما اتّفقوا مسبقاً على ذلك.

قال كانغ باستحياء: - يبدو لي أنّ أداءنا تحسّن...

قالت يانفِن متحمّسة وقد اصطبغ وجهها بحمرةٍ خفيفة: -نعم، كان الأداء جيّداً جداً على ما أظنّ. لقد شعرتُ بمتعةٍ كبيرة وأنا أشارك في هذا الأداء الجماعيّ.

قال يو وهو يهرش رأسَه بيده اليمنى التي تحرّرت من القوس: - لم أتقن اللّحن المحوريّ بصيغة لا-كبيرة.

سارع كانغ يقول: - بلى، بلى، كان أداءً لا بأس به يا ميزوساوا-سان.

- إنّها لحظةٌ مربكةٌ بالجمال! ولم أكن في مستواها، على ما أظنّ...

صاح تشِنغ: - صحيح أنّ هذا التغيّر في المفتاح الموسيقي، مذهلٌ. وكأنّما يتغيّر المشهد بغتةً تغيّراً لحظياً...

واصل الربّاعيّ الصينو-ياباني حوالي ساعةٍ أخرى على النّحو

نفسه، حتّى أكملوا، كما اتُّفق، أداءَ الحركة الأولى كاملة. لمّا استأنف الكمانُ الأوّل اللّحن المحويّ الشّجِنَ[1] ليطوف على الموازير mesures العشرين الأخيرة، أحسّ كل عازفٍ من عازفي الرّباعي أنّه يرتقي طريقاً يصعَدُ صوب قمّة مدوّخة. منتقلين من العنيف (فورتيسيمو) إلى الرّقيق جداً، ثمّ رجوعاً إلى العنيف، كان الكمانان يُتمّان رسم لوحة الوحدة الشّجِنَة، بينما يؤدّي الألتو والتشيلو بتوافقٍ لحنَ قرارٍ نشيطاً ما يزال يمضي متوعّداً ويتصاعد تدريجياً. ثمّ أخيراً حين أنزلوا العزفَ على آخر تآلفاتِ سلّم لا-صغيرة، خيّمت برهة صمتٍ طويلة، تلتها تنهيدة ارتياح وابتسامة رضا.

صاح يو: - أوف! لقد ترنّحنا قليلاً في الطّريق، لكن على أيّ حال من الجيّد أنّنا واصلنا حتّى آخر المسير.

ارتسمَ على شفتيه مطلعُ ابتسامة خفيفة. وعلى جبينه الذي خطّتهُ تجاعيد أفقيّة، كانت تتلألأ قطرات عرق. اقترح استراحة.

أجاب شِنغ وكانغ معاً: - بكلّ سرور!

قال يو: - هل نحضّر شاياً؟ ... سوف أغلي الماء.

ذهبوا جميعاً إلى المخزن، ليودعوا فيه آلاتهم.

---

(١) أضع شجِن، وشجنة، نعوتاً مشتقة من كلمة «شجن» كمقابل لكلمة Mélancolie ومشتقاتها، ولا أرى تعبيراً يصف الشّجن (الميلونكوليا)، أبلغ من عبارة فيكتور هوجو: «الميلونكوليا، هي سعادة أن تكون حزيناً».

قالت يانفِن بصوتٍ صافٍ مترنّمٍ: - سأتولّى الأمر يا ميزوساوا -سان.

وبعدما أعادت آلتها إلى الغمد، أمسكت الشّابة الصينيةُ علبةَ شايٍ صغيرة ناولها إيّاها يو، وقصدت ركن المطبخ المقابل للمخزن.

٣

حين عادت يانفِن حاملةً إبريقَ شايٍ أبيضَ كبيراً، كان يو قد رصّ خمسة فناجين مختلفة على قماشٍ مربّعٍ كُحليٍّ غطّى به صندوقَي الكرتون اللّذَين كان الموسيقيون يتّخذونهما مقرأين قبل قليل.

- ليس لديّ الكثير من السكّر. من يرغب فيه؟

قال رِي وقد أغلق كتابه للتوّ: - أنا.

صبت يانفِن الشّاي في الفناجين. ووُضع طبق بسكويت سابليه وسط المائدة التي أعدّت بارتجالٍ.

قال يو بدون تكلّفٍ: - تفضّلوا.

بادر كانغ: - لكن، على أيّ حال، يا لها من موسيقى خارقة!

أيّده شِنغ قائلاً: - نعم، بالفعل. (ثمّ تناول بسكوتاً قائلاً): «إتاداكيماسو»[1].

(١) العبارة التي تقال قبل الأكل. وتعني حرفياً: «أقبَلُ بكلّ تواضعٍ عطيّتَك». (المؤلف).

وقالت يانفِن مؤكّدة: بالفعل، إنّ وحدة الشّاعر شوبرت وهو يغرق في شجنٍ شديدٍ إزاء عنف العالم المجنون، ليست بالشّيء الهيّن... ومثلي مثل كانغ، أؤيّدُ تعبير ميزوساوا-سان الذي يمسّ قلبي مباشرة.

ثمّ واصلت الشّابة كلامها، فأضافت أنّ طابع الحزن في اللّحن الذي إذ يُغنّى فوقَ، أو بجانب، القلقِ المكتوم المُعبّر عنه بالإيقاع القرار، هو بلا شكّ سِمةٌ من السّمات المُميَّزة في تأليف شوبرت، وهي سمةٌ تراها كثيرة الحضور في أواخر ما ألّفه من سونيتاتٍ للبيانو.

سألها يو: - هل تعزفين البيانو أيضاً يا يانفِن-سان؟

- نعم، كنت أعزفه بانتظامٍ في الصّين. لكن الآن لا؛ لأنّني لا أملك بيانو في طوكيو.

قال يو: - إنّ السّجنَ شكلٌ من أشكال المقاومة. كيف يحافظ المرء على حصافة عقله، في عالمٍ جُنَّ، واستسلم للشيطان الذي يجرّد الفرد من كلّ شيء؟ إنّ شوبرت معنا، هنا والآن. هو معاصرٌ لنا. هذا ما أشعر به شعوراً عميقاً.

وكان رِي قد عاد إلى مقعده بعدما تناول بسكوتين أو ثلاثةً غمسها في الشاي. وعاد إلى كتابه الذي يظهر أنّه قد فرغ منه؛ إذ أخذ يرجع إلى بعض المقاطع، فيقرأها بانتباهٍ مضاعف. لكن كلّما تكلّم والده، أوقف هو القراءة، ليركّز في كلامه بانتباهٍ متعاظمٍ، من

غير أن يدرك، مع ذلك دلالات كلّ تلك الكلمات التي ينطقها الكبار.

واصل يو بيقين: - على أيّ حالٍ، أظنُّ أنّ عمله يحمل معنى... أنّ اليوم، في سنة ١٩٣٨، وفي ركنٍ من طوكيو، يجتمع رباعيٌّ صينو-ياباني ليعزف روزاموند شوبرت...، في الوقت الذي يبدو فيه البلد بأكمله، الواقعِ في هواجس دعاة الحرب، فريسةً ينهشها سرطانُ القومية الذي يقسّم الأفراد إلى **نحن** و**هم**...

قال كانغ هامساً: - إنّك تتكلّم بصوت مرتفع يا ميزوساوا-سان.

- آسف.

قالت يانفِن: - هل يريد أحدكم المزيد من الشّاي؟

مدّ لها شِنغ فنجانه: - وأنت يا ميزوساوا-سان؟

- كلاّ، شكراً. لقد اكتفيت.

توجّهت يانفِن حينئذٍ إلى الطّفل المستغرق في تصفّح كتابه.

- هل تريد المزيد من الشّاي يا رِي-كون؟

- نعم، أرجوك.

خطا الصبيّ ثلاث خطواتٍ كبيرة، ليقترب من يانفِن، فملأت فنجانه.

- انتبِه، إنّه ساخن جداً!

مبتسمةً، ناولت يانفِن الصبيَّ قطعة بسكويت، فشكرها بخجل، ثم عاد إلى المصطبة حاملاً فنجانه، سائراً بخطواتٍ محسوبة كيلا يهرق الشّايَ.

قال يو بدون مقدّمات: - عندي سؤالٌ أطرحه عليكم، سؤال لا علاقة له بالموسيقى.

تبادل الصينيون الثلاثة النّظر، وقد أثارتهم النبرة الشعائرية التي اتّخذها صديقهم الياباني بغتةً.

- لِمَ قررتم البقاء في اليابان، في حين أنّ أغلب الطلبة الصينيّين قد عادوا إلى بلدهم السّنة الماضية، عقب اندلاع الحرب التي تدور الآن بين بلَدينا؟ إنّها شجاعة كبيرة منكم...

بادر شِنغ إلى الكلام تلقائياً:

- صحيح أنّ الكثير من الصّينيّين عادوا إلى الصّين منذ السّنة الماضية. انخفاضُ عددهم واضحٌ على ما أظنُّ. لكن ثمّة أيضاً من ما يزالون يأتون رغم الحرب. ليسوا كُثراً، لكنّهم موجودون. وما يزال المركز الثقافي الياباني-صيني يؤدّي عمله...

تدخّلت يانفِن: - أنت لا تجيب إجابة دقيقة على سؤال ميزوساوا-سان: لِمَ ما تزالُ أنت في طوكيو على الرّغم من وجود صعوبات لا يمكن إنكارها، لا بل وحتّى بعض الأخطار التي يفرضها سياق الحرب؟ هذا هو السّؤال الذي يقصده ميزوساوا-سان.

أيقظ انتباهَ رِي مرّةً أخرى البناء المتكامل للجملة اليابانية التي نطقتها يانفِن، وكذلك صفاء نبرتها المثير للإعجاب، كأنّ مذيعةً في الرّاديو هي من يتحدّث. رفع رأسَه، وتأمّل الكبار الذين كانوا قد انخرطوا في حديثٍ، فضربوا صفحاً عن موسيقى شوبرت.

- منذ أربع سنواتٍ وأنا أعيش في طوكيو. من النّاحية الرّسمية، ما أزال طالباً، لكنّ لي حياةً بدأت تتجذّر هنا. لديّ أصدقاءٌ، مثلك، وأنا مرتبطٌ بهم أشدّ الارتباط. ثمّ عندي صديقة يابانية، نخطط معاً لمستقبلٍ مشتركٍ...

تورّد وجه شِنع، كما يحدث له بالضّرورة حين يشرب جرعة من البيرة، فيصيبه ثملٌ خَمُولٌ.

قال كانغ بدوره، بصوتٍ خجول: - صحيح أنّ البلدين دخلا في حربٍ معلنةٍ، منذ حادثة ميناء ماركو-بولو. لكنّني لا أتماهى تماماً مع الصّين. أنا صينيٌّ، وأتكلّم بالصينية، لكنّني أعتبر نفسي في المقام الأوّل فرداً حراً في انتماءاته. وأجتهد في إقناع نفسي بأنّني إنسانٌ قبل أن أكون صينياً. وعلى المنوال نفسه، لست أُماهي أصدقائي اليابانيّين مع بلادهم. أفضّلُ أن أومن في وجود رابطة صداقةٍ تتجاوز الصراعات الوطنية...

كان للكلمات التي نطقها كانغ بهدوء، وبيابانية مضطربة بعض الشّيء، ومطبوعة بلكنةٍ مميّزة، وقعٌ في نفس يانفِن. قام رِي بهدوءٍ من الدّكة حيث كان يجلس واضعاً كتابه على ركبتيه؛ ودنا من يو،

فوقف خلفَه، ووضع يده اليمنى على كتف والده اليسرى، ضامّاً باليد الأخرى كتابَه إلى صدره.

قالت يانفِن:

- أنا أيضاً أفكّر مثل كانغ، وبالتأكيد مثلك أنت أيضاً يا سيّد ميزوساوا-سان. أتكلّم بصدقٍ مطلق، ما دام الكلام سيبقى بيننا. (ثمّ خفضت درجةَ صوتها وأضافت) الحقّ أنّني ساخطةٌ على التوسّع الاستعماري لإمبراطورية اليابان، لكنّني مع ذلك لا أخلط بين الأفراد وبين الدولة التي تضمّهم. في عالمنا المعاصر نحن نخضع بالضّرورة للدولة. ومع ذلك ينبغي لنا جميعاً أن نحدّد أنفسنا، في المقام الأوّل، باعتبارنا أفراداً نتعالى على كلّ انتماء. أنا بالتّأكيد صينيّةٌ، أتحدّث الصّينيّة، لكنّني لا أريد أن أُختزَل في هذا البعد الضّيّق... إنّ الفردانية شيءٌ آخرُ غير ما تحدّده صدفةُ الولادة.

مستغرقاً في كلام أصدقائه، غفل يو عن شايه، ولمّا أفرغ فنجانه جرعةً واحدةً، كان الشّاي قد برد. وضع الفنجان، وقال موجّها الكلام لأصدقائه الثلاثة جميعاً، بينما يداعبُ يد ابنه التي أحسّ بها على كتفه:

- لقد لامس كلامكم قلبي عميقاً. أفضّل أن يكون لي أصدقاء مثلكم في بلد عدوّ، على وطنٍ مكروه، ومواطنين منبطحين لا يقسمون إلا بالانتماء إلى الوطن. أنا معكم، وسأظلُّ

معكم، حتّى لو اتُّهمت بأنّني «مواطنٌ غير صالح»، «خائن للوطن»، هيكوكومان.

أثارت انتباه الولد الكلمة الأخيرة التي نطقها والده «هيكوكومان»، فلم يستطع أن يمنع نفسه من أن يقول لأبيه:

- بابا، أنا أعرف هذه الكلمة. لقد قرأتُها في كتابي. هي الكلمة التي كانت عصابة كوروكاوا تستعملها أثناء الاعتداء على كيتامي-كون!

أجاب يو وهو يلتفت إلى ابنه: - أنت محقٌّ يا رِي. إنّها الكلمة التي يستعملها في الغالب الأعمّ أقوياءُ هذا البلد للبطش بمن يرفضون طاعتهم. يظنّون أنّهم مركز العالم، وأنّ كلّ شيء يدور حولهم، تماماً مثل أصحاب النّفوذ الذين انتقدهم كوبرنيك في زمنه. إنّها كلمةٌ قبيحةٌ، تُلحق العار بمن يقولها، وليس بمن تُقال في حقّه! توافقني في أنّ كيتامي-كون كان محقّاً حين قال «لا» لكوروكاوا وعصابته الذين كانوا يأمرونه بالخضوع لهم، لأنّهم يرون أنّ تقدّمهم عليه في السّن، يمنحهم الحقَّ والسّلطة. إنّه نظامٌ أحمق، لأنّه لا يتأسّس على هاجس التّمييز بين الخطأ والصّواب. ليس الأكبرُ سناً بالضّرورة محقّين لمجرّد أنّهم أكبر سنّاً! إنّهم لا يدركون كم ينحطّون حين يستعملون تلك الكلمة الفظيعة.

كان الأصدقاء الصّينيون ينظرون مندهشين إلى يو يتحدّث إلى ابنه.

قال يو وهو ينظر إلى ساعته: - حسناً، أظنّ الوقت قد حان لنعود إلى صديقنا شوبرت.

ارتسمت على وجهه ابتسامةٌ مشرقة. وُضِّب كلُّ شيء في دقائق. أعاد يو الصّندوقين إلى موضعيهما. وذهب كلّ واحد ليأتي بآلته من المخزن. وحين شكّل الموسيقيون من جديد نصف الدّائرة، كان رِي قد جلس في موضعه، وغاص في كتابه، يبحث تحديداً عن الصّفحة التي قرأ فيها كلمة هيكوكومان.

سأل كانغ: - ماذا نفعل يا ميزوساوا-سان؟ هل ننتقل إلى الحركة الثانية؟ أم نبقى في الحركة الأولى؟

- إيه! ما رأيكم أنتم؟ هل نبدأ الإيقاع المتمهّل (الأندانتي)؟

اقترحت يانفِن: - ربّما نستطيع أن ننتقل إلى الحركة الثانية، علماً بأنّنا سنعود لاحقاً إلى **الإيقاع السريع المرح من دون مبالغة**. ما رأيُك يا شِنغ؟

- نعم، شخصياً أتحرّق لأرى نتيجة عزف **المتمهّل**. لكن ربّما يرغب ميزوساوا-سان أن نتأنى، ونمدَّ إقامتنا قليلاً في الحركة الأولى...

- ما نزال بعيدين عن إتقان **السريع المرح من دون مبالغة**، لكنّني موافق على أن نبدأ في استكشاف الحركة الثانية!

وبعد برهةِ تردّدٍ طويلة انشغل بها بال أعضاء الرّباعي الثلاثة الآخرين، استأنف يو الكلامَ، بنبرةٍ مغايرة. ويده اليسرى تعدّل

وضع الكمان على ركبتيه، بينما يده اليمنى تمسك القوس متدليةً، حتّى تكاد تمسّ الأرض:

- سوف أطرُق الموضوعَ رأساً... عندي لكم مقترح...

متأثّراً بالتحوير الذي طال صوت أبيه، حدّق ري في يو:

- نحن نشكّل رباعياً. نعزف شوبرت معاً. وجميعنا صغارٌ قياساً إلى هذا الأثر الفنيّ الهائل...

أغلق التلميذ كتابه. سكنَ لا يتحرّكُ؛ عيناه لا تفارقان والده.

- لكن، في رأيي، ثمّة اختلالٌ في التناسق، اختلال معيبٌ بعض الشّيء. أقصد علاقتنا المشتركة... ثلاثتكم تنادونني ميزوساوا-سان، أي باسمي العائليّ، بينما أناديكم أنا بأسمائكم الشّخصية. لمَ لا تنادونني يو-سان؟

سأله كانغ وهو يضع برفقٍ كمانه وقوسَه أرضاً: -أليس صعباً، بل مستحيلاً، أن ننادي المرء باسمه الشّخصيّ في اليابانية؟

- صحيح. الطّبيعيُّ ألا ننادي الشّخص باسمه الشّخصيّ. فإن حدث ذلك فإنّما يحدث وفق شروط، وضمن وضعيات يصعب عليّ شرحها... لكن ذلك ما أفعله أنا معكم! لا بل نستطيع أن نفكّر في أن ننادي بعضنا بعضاً باستعمال الأسماء الشّخصية ببساطة، من دون استعمال اللاحقة سان، كما هو الشّأن في اللّغات الأوروبية... أهو اختيارٌ متطرف؟

سألته يانفِن: - تريد أن تسود بيننا حريّةٌ كبيرة، ومساواةٌ تامّة، بحيث يتحرّر كلامُنا من قيوده؟

- تماماً. أن نتحدّد جميعاً، تلقائياً، قياساً إلى اللّغة المشتركة بيننا! ينبغي أن نكون أحراراً إزاء اللّغة، وداخل اللّغة...

خيّم صمتٌ، لم يجرؤ على كسره إلا يانفِن. وضعت آلتها وقوسها على ركبتيها المضمومتين اللّتين كان فستانُها يسترهما تماماً...

- ما دام ميزوساوا-سان.. كلاّ، يو-سان.. كلاّ... ما دام يو مُصرّاً على طلبه، فلنحاول أن نشيّد بيننا فضاءً جديداً، طريقةً جديدة نوجَد بها معاً، عبر استعمالٍ ممنهجٍ لأسمائنا الشّخصية! أظنُّ أنّ أبناء اللّغة يصعب عليهم تحويل اللّغة، لأنّهم سجناؤها... إنّ الأجانب بالأحرى هم القادرون على إحداث تغييرات!

- شكراً يا يانفِن...

كاد يو أن يقول «يانفِن-سان»، لكنّه ثابر على الالتزام بمقترحه إلى أقصى حد: فلم يُتبع المقطعين الصوتيّين اللذين يؤلّفان اسم يانفِن، إلا بفراغٍ صوتي خلقَ أثراً شبيهاً بأثر الفصل المتعسّف. أمّا الولد الذي كان يتابع بانتباهٍ حوار الكبار، فقد أصابه الذّهول من الأثر الغريب الذي أحدثه والده ويانفِن وهما يتناديان باسميهما الشّخصيّين.

واصل يو، مدفوعاً بحماسة يانفِن غير المتوقّعة: - لعلمِكم، أتعلّمُ الفرنسيّة مع فيليب الذي حيّاكم قبل قليل... وقد قال لي

ذات يومٍ شيئاً أثّر فيّ ودفعني إلى التفكير... في الفرنسية نستعمل الكلمات نفسها بغضّ النّظر عن المخاطب... الكلمات لا تتغيّر بتغيّر المخاطب، سواء كان نادلاً في مقهى، أو سائق تاكسي، أو طبيباً، أو مدرّساً، أو حتّى وزيراً...

قال تشِنغ بنبرة مرحة: - أوه، هنا يصير الأمر معقداً!

- نعم، أرى أنّه ليس بالأمر اليسير... أحاول إذن أن أشكّل بطريقتي الخاصّة، ما أحسب أنّني فهمتُه... أظنُّ أنّ اللغة، بالنّسبة إلى فيليب، واللّغةَ الفرنسيّة على وجه التّحديد، هي ملكٌ مشترك ينبغي أن يتقاسمه المستعملون على قدم المساواة. إنّ علاقات التفوّق والدّونية الاجتماعية، ليست ملتحمة بنسيج اللّغة... على خلاف الحالة اليابانية.

أجاب تشِنغ حاضناً التشيلو فوق ركبتيه كأنّما الرّجل والآلة يتعانقان في رقصة: - أظنُّ أنّني فهمت على نحوٍ أفضل.

قالت يانفِن: - إنّ تَقاسُمَ اللّغةِ باعتبارها ملكاً مشتركاً، يسهّل بالضّرورة العلاقات الاجتماعية الأفقيّة التي تسعى إلى تقييد إمكانات هيمنة البعض على البعض...

قال يو وهو يستدير صوب يانفِن: - تماماً. إنّه أمر جيّد، أليس كذلك؟

أجابته الصّينيّة وهي تبتسم له ابتسامةً خجولاً: - خاصّة في أيّامنا هذه، على ما أرى!

- تصوّروا وضعيةً أتحدّث فيها إلى رجلٍ مهمّ، يُعتبر أعلى منّي اجتماعياً، وزير مثلاً، ولنفترض تحديداً... أنّني أريد أن أذكر أباه؛ الحالُ أنّني لن أستطيع أن أشير إلى أبيه، في الفرنسية، إلا بالقول: «والدك». وهذا الأمر ينطبق على والد الوزير، كما على والدي أنا...

أضاف تشِنغ: - في اللّغة الصينيّة أيضاً لا يمكن أن نقول: «والدك» بصيغة أخرى غير «والدك»....

تدخّل كانغ بدوره: - ... بينما في اليابانية، لا بدّ لنا من اختيار الكلمة المناسبة حسب موقعك قياساً إلى مقامِ المخاطب...

أجاب يو موافقاً: - نعم، بالضّبط.

أضافت يانفِن: - كما أنّه في اليابانية، لا يمكن استعمال ضمير المخاطب بصيغة الجمع «أنتم»[1]، استعمالًا مطلقاً وكليّاً. وهذا مصدر إحباطٍ دائم بالنّسبة إليّ... دائماً ما أرغب في استعمال ضمير «أنتم» مع من أتحدّث إليه وجهاً لوجه... لكنّني أعرف أنّ الأمر مستحيل...

تنهّد تشِنغ راسماً ابتسامةً حزينة: - آه نعم، استحالة أن تستعمل ضمير الجمع، مع من تتحدّث إليه وجها لوجه...

---

(١) ضمير المخاطب المفرد بصيغة الجمع، كما في الفرنسية، حيث يُخاطب الفردُ بصيغة الجمع من باب التّقدير والاحترام.

وبعد برهة صمتٍ، أغرقَت أعضاء الربّاعي في تَرَوٍّ متفكّر، اقترح يو أن يبدؤوا الحركة الثانية.

ومن غير أن ينتظر جواباً، وضع يو كمانَه تحت ذقنه.

أخذ رِي يتأمّل الكبارَ، وكتابُه مغلقٌ على ركبتيه. وكان قد تابع باهتمامٍ كبير الحديث بين أبيه وأصدقائه الموسيقيّين.

أجاب كانغ وتشِنغ في وقت واحد: - نعم، هيّا.

قالت يانفِن: - إنّ في **الإيقاع المتمهّل** من الشّجن قدر ما في **الإيقاع السريع المرحِ، بلا مبالغة**.. سنواصل إذن فعلَ مقاوَمَتِنا يا يو، أليس كذلك؟

اندهش رِي مرّةً أخرى لسماع اسم والده، ورأى ابتسامةً رقيقةً ترتسم على وجه يانفِن المزيّن بمكياجٍ خفيف.

اتّخذ الموسيقيون وضعية العزف: حبس كلّ واحدٍ منهم نفسَه، واستعدَّ للانطلاق. نزل عليهم صمتٌ مطلقٌ، وتمطّى. وظلَّ رِي يحدّقُ فيهم ساكناً مثل سمكة شبّوط في قعر حوضٍ في فصل الشّتاء. ثمّ أخيراً، أعطى يو إشارة الانطلاق بحركة خفيفة من رأسه، وهو بالكاد يتنفّس.

من أوتار الكمان الأول أخذ يسيل لحنٌ بسيطٌ، مؤثّرٌ، أخاذٌ، شفّافٌ، كأنّه جدولٌ من دموع.
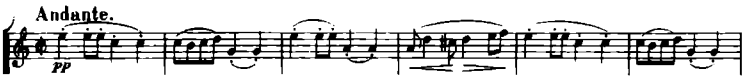
كان التّلميذ، كأنّما تحجّر من الدّهشة أو الإعجاب، يصغي بكامل حواسّه، ويشعر برعشة انفعالٍ يخالطها دفق حرارة، تصعدُ فيه تدريجياً حتّى تغشى أذنيه. وبين الفينة والأخرى يلقي الموسيقيون الأربعة إلى بعضهم بعضاً، ابتسامةً متواطئةً، مبتسمين مثل تماثيل النّحات كاربو. الكمانُ الأوّل يواصل برهافةٍ رسم خطٍّ لَحنيٍّ ذي حلاوةٍ جوّانيّة، بينما تسنده الآلات الثلاثة الأخرى كأنّها دعامةٌ صلبةٌ تحمل إلهةً عظيمةً نُحتت من خزف هشّ.

وبغتةً، تمزّقت موسيقى شوبرت بانفجارِ أصواتٍ بشريةٍ تنطقُ في صخبٍ كلماتٍ لا تبين، ووقعِ أحذيةٍ تتقدّم بعنفٍ، وتصعدُ الطّابق بكثافة.

غريزياً قام يو، وهرع إلى ابنه، حاملاً في يده اليسرى الكمان والقوس. جرّه من ذراعه اليسرى، وطلب منه أن يختبئ فوراً في الدّولاب الكبير. سارع رِي إلى الاختباء.

- لا تتحرّك من هنا حتّى أعود! فهمت؟

صاح ري: - آه، كوبر!

استدار يوُ، فأمسك الكتاب الذي كان قد بقي على المصطبة، وناوله ابنَه الذي كان قد اتّخذ مكانه في الدولاب، وغلّقه على نفسه فوراً. وبقفزةٍ واحدة، بلغ يو المخزن، فأودع فيه كمانَه وقوسَه في غمدهما، ثمّ غادره فوراً. ووقف، مستنداً إلى الجدار، وعبّ نفساً عميقاً.

أخذ الموسيقيون الصينيون الثلاثة ينظرون إليه ذاهلين، لا ينبسون بكلمة. وأخذ هو أيضاً ينظر إليهم ويبتسم لهم.

مكتبة
t.me/soramnqraa

٤

كان رِي، في الظّلام، يتساءلُ عمَّ يجري، عمَّ سيجري. لمَ عليه أن يبقى هناك، وحيداً، في ذاك المخبأ المعتم؟ وإلى متى؟ سُدىً طرح الأسئلةَ، ولم ينكشف له أيّ جواب...

سريعاً، تناهت إلى سمعه جلبة. نزع حذاءه ووضعه تحت ركبتيه المثنيّتين، كيلا يصدر صوتاً عبثياً. كان ثقب القفل يلمع مثل جرم في السّماء المظلمة. بهدوء اقتربت عينه اليمنى. وتوقّفت العينُ على بعد سنتمترين من الجرم، فسلّط على حدقتها نقطةً برّاقةً تشبه كوكباً يدور حوله. رمشت العينان مرّتين.

٥

وفي اللّحظة نفسها التي انضمّ فيها يو إلى بقيّة أعضاء الرّباعيّ، بعدما وضع كمانه في المخزن، انفتح بعنفٍ بابُ مدخل قاعة الاجتماعات الكبرى. واقتحم المكان في جلبةٍ خمسةُ جنودٍ، يرتدون بزّات خاكية، ويعتمرون قبّعات من اللّون نفسه. أصغرهُم، وهو رجلٌ قصيرٌ بدينٌ، غزيرُ الشّعر، قد عقد يديه خلف ظهره، وبهيأةٍ متغطرسة جعلَ يتفحّصُ على الفور المكان طولاً وعرضاً، بينما وقف باقي الجنود، مستقيمين كحرف الألف، ممسكين ببنادق، مواجهين يو الذي كان قد عاد أثناء ذلك، فوقف بين أصدقائه، وقد حضنوا ثلاثتُهم آلاتهم الموسيقية. فتح الجنديّ الغزير الشّعر بابَ المخزن، ثمّ أغلقه بعدما ألقى نظرةً سريعةً على الأشياء المتناثرة فيه؛ ثمّ انتقل إلى جانب المصطبة؛ تقدّم صوب الدّولاب الهائل، فتأمّله طويلاً كأنّما لم يرَ من قبل أثاثاً بذاك الشّكل. ولم يعد الولد المختبئ فيه يجرؤ على أن ينظر من القفل. مرتجفاً من الخوف، كان يتهيّأ له أنّه يسمع عبر باب الدولاب، حفيفَ بزّة الجنديّ،

بل وحتّى تنفّسه الذي كان يزفر بصوتٍ مرتفع وإيقاعٍ متسارعٍ، كأنّه تنفّس رجلٍ يستشيط غضباً. عاد الجنديّ على مهلٍ صوب الموسيقيّين الذين يحرسهم مرؤوسوه. ثمّ خرق الصّمت وهو يطالع يو من رأسه إلى قدميه، فقال بصوتٍ متسلّطٍ وقح: - ماذا تفعلون هنا.

أجابه يو غوراً: - نعزف الموسيقى. نتمرّن.

- بأستار سوداء مسدلة؟

- هذا أفضل للتّركيز. كما أنّه أبعَثُ للهدوء...

- وأيّ نوعٍ من الموسيقى كنتم تعزفون؟

- **الرّباعية الوترية بصيغة لا-صغيرة، المؤلَّف رقم ٢٩**، لفرانز شوبرت، المشهورة بين العموم بـ«**روزاموند**».

- هذه الموسيقى ليست من موسيقى بلادنا.

ثمّ سأل الجنديُّ يانفِن، وهو يحدّق في عينيها واقفاً أمامها: -وأنت؟ هل أنت أيضاً تعزفين نفس الشّيء؟

لم يكن رِي يستطيع أن يتبيّن الكلمات التي ينطقها هؤلاء أو أولئك. كان يميّز صوت أبيه، لكنّه لم يكن يتبيّن بوضوحٍ ما يقوله. دفقٌ من الكلماتِ يقطع بعضه بعضاً. وبعد خمس ثوانٍ أو ستٍ، بدت له دهراً، سمع مجدّداً صوتَ أبيه الدّافئَ، وقد بدا له متوتّراً على غير عادته.

- نعم، إنّها زوجتي... أيكو. هي عازفة ألتو.

وفي غضون عُشر ثانية، ألقت يانفِن إلى يو بنظرةٍ مخاتلة.

قالت بثقةٍ مهيبة: - نعم، أصاحب زوجي في العزف، فهو عازف الكمان الأوّل. منذ أسابيع عديدة ونحن نتمرّن على رباعية شوبرت.

قال القصير البدين بنبرة متهكّمة: - لديك زوجةٌ شابّةٌ، عجيب!

ارتسمت ضحكةٌ سخيفة ومتهكّمة على وجوه الجنود المصطفّين الذين ظلّوا حتّى تلك اللّحظة صامتين جامدين.

واصل الجنديّ هازئاً: - وهذان الآخران... هذان السّيدان؟

سارع يو إلى الكلامِ، متلعثماً بعض الشّيء: - إنّهما معاً... إنّهما طالبان حاصلان على منحة بمركز الدّراسات الصّينو-يابانية. إنّهما صديقان. يعزفان معنا على سبيل التسلية...

- تخالط شْناويّين[1]! وتعزف موسيقى الأعداء البيض، موسيقى الأجانب المُريبين! موسيقى البلدان العدوّ! أنت تُراكمُ الأخطاء الجسيمة!

- أرجوك يا سيّدي كُن مهذّباً مع ضيوفنا. اسحب الكلمة القبيحة التي وصفتهم بها! ثمّ إنّ شوبرت نمساويّ. والحال

(١) Chintoque نعت تحقيري، بدلًا من استعمال كلمة صيني. شناوي، شناويين، وهي مجرّد كلمات تقريبية من عندنا، تقريباً للمعنى.

أنّ النّمسا كانت للأسف ملحقةً بألمانيا النّازية. وبالتّالي أنّبه عنايتك يا سيّدي إلى أنّ موسيقى شوبرت لا تعتبر موسيقى أعداء.

دنا الجنديّ ذو الشّعر الغزير من يو. وقد احمرّ بكامله. استولى غضبٌ صامت على وجهه الذي كان تقريباً على بعد عشر سنتمترات من وجه يو.

- نحن في حربٍ مع الشناويّين. فهل ترى الوقت مناسباً لتلهو بالموسيقى مع ضيوفك؟

نطق الجنديّ كلمة «ضيوف» محمّلة بكلّ كراهيته العصبيّة.

- منذ عامٍ استقرّ قائدُ الأوركسترا البولندي العظيم جوزيف روزنستوك في اليابان، ليشرف على الأوركسترا السيمفونية ... في اليابان نعزف الموسيقى الأوروبية... يا سيّدي... إنّ الموسيقى عابرة للحدود، هي إرث البشرية المشترك...

- ألست أحد الحُمر؟ لا يتحدّث بالطّريقة التي تتحدّث بها، إلا الشيّوعيون!

استولى على الجنديّ غضبٌ أهوج، مدمّرٌ، حتّى أنّ جسده بكامله أخذ يرتجف.

وكانت كلمات يو تصل حتّى ابنه في عتمة الدّولاب، فترنُّ واهنةً ككلمات الوداع التي يجاهد المسافر في أن يبلّغها حبيبَتَه عبر زجاج النّافذة لحظةَ انطلاق القطار. ولم يرد رِي أن يفلت أيّ كلمة

ممّا يقوله والده، لكنّ انتباهه تشوّش بسبب الصّوت المستعر المدوّي الذي يبدو أنّه كان يزرع الرّعب في كامل الصّالة.

- كلاّ يا سيّدي، لستُ شيوعياً. إنّما فقط أقول لك إنّ العقل يملي عليّ...

- العقل هو من يملي عليك. بواه! يا حضرة المثقّف المدّجج بالدّبلومات!

مستاءً، بصقَ القصيرُ السّمينُ على يو. مسح يو وجهه بكمّ سترته.

- أحقاً الموسيقى هي ما جمعتكم هنا أربعتكم؟ أم اجتمعتم لشيءٍ آخر؟ أليست الموسيقى مجرّد ذريعة؟ أنت لا تحمل آلة، على ما أرى!

- إن أردتَ يا سيّدي، أستطيع أن أريك كماني. لقد تركته في الزّاوية هناك. هل تسمح لي بأن أحضره؟

وبلا إذن من الجنديّ الغاضب، شرع يو في السّير. سمع رِي وقع الخطوات. لم يكن أحد يتكلّم. وحين فتح يو باب المخزن، استدار الجنود صوبَه، واتّخذوا وضعية الهجوم. اختفى يو في المخزن، ثمّ ما لبث أن ظهر حاملاً كمانه. وعاد صوب الجنديّ.

- هو ذا كماني يا سيّدي.

مدّ يو آلته إلى الرّجل الغاضب. تناول الجنديّ الكمان بيديه، وفحصه كأنّها أوّل مرّة في حياته يلمس فيها آلة وترية.

- وما اسمك يا سيّدي صديق الشناويّين؟

كانت عينا الجنديّ تتلظّيان حقداً.

- ميزوساوا.

هُيّئَ لِري أنّه سمع اسمه العائليّ ينطقُه والدُه. وأراد أن يرى ما يجري. اقترب الكُويكِبُ مرّةً أخرى من الجُرم.

- إنّك تُخِلُّ بالاحترام الواجب لجنود جلالة الإمبراطور، يا ميزوساوا!

ولمّا نطق القصيرُ البدين «جلالة الملك» وقف مؤدّياً التحيّة العسكرية لثانيتين أو ثلاث، كأنّما يقف بالفعل أمام السّلطة الأسمى.

- تستحقّ درساً!

وقبل أن يتمّ نطق «درس»، ضرب يو بقبضته على وجهه. فسقط العازفُ، لكنّه قام من فوره. وفي اللّحظة نفسها، ضربه الجنديُّ ضربةً أقوى من سابقتها. هوى مجدّداً. انحنت عليه يانفِن غريزياً، بعدما وضعت على الأرضية آلة الألتو والقوس. أمسكت بذراعه، وسدّدت نظرتها المتّقدة غضباً إلى الضّارب.

- إنّ وظيفتي هي تقويم اعوجاج **الهيكوكومان** أمثالك!

ثمّ مدفوعاً بالحقد العنيف، رمى الكمان أرضاً بكامل قوّته، وسحقه بحذائه العسكريّ الجلديّ. انكسرت الآلة الوترية، انسحقت، تهشّمت، وأطلقت صيحاتٍ غريبة، صيحات نَزْع ما كان ليقدر على إطلاقها أيّ حيوان محتضر في غابة الصّيادين عديمي الرّحمة.

كان رِي يتأمّل من ثقب القفل كلّ المشهد المرعب، من غير أن يتبيّن بما يكفي الحديثَ بين أبيه والعسكريّ. كان متأثّراً بالعنف الذي يتعرّض له والده. وقد حجّره الخوفُ، فتكوّم حول نفسه في عتمة مخبئه، وقد اجتاحه عجز الطّفولة. في نفق أذنه لا ترنُّ إلاّ وحشيةُ شناعةِ الكلمة **هيكوكومان**، والأصوات الذاوية، الشّاكية، النّشاز، التي يصدرها كيانُ والدِه المحتضرُ.

٦

شخص ما أتى للتوّ. ممسكاً بكتابه بين يديه، أرخى رِي أذنه. ضجيجُ خليطٍ من الخطوات والكلام. ومن الخليط الصّوتيّ انفصلَ فجأةً الصوتُ القويُّ للشّرطيِّ المتوحّشِ: «سيّدي الملازم!».

٧

دخل عسكريٌّ رفيع الرّتبة، رشيق القوام، رصينُ الهيأةِ، جادُّ الملامح، يتقلّد في جنبه سيفاً، ويحيط به عدّةُ عساكر. وعلى الفور استدار شطرَه القصيرُ البدينُ الغزيرُ الشّعرِ، والجنود الآخرون، فرسموا بهيأتهم تحيّةً عسكرية.

- راحة! لا أحد بالطّابق، لا شيء غير عاديّ، لا شيء مريب. ما الذي يحدث هنا، أيّها العريف تاناكا؟

قال رِي لنفسه، في عتمة مخبئه: - تاناكا إذن هو اسم الجنديّ الرّهيب.

محتفظاً بوقفته مستقيمةً، وكعبيه متلاصقين، وذراعيه ممدودين لصق جسده، أجاب تاناكا الجنديَّ الذي ظهر للتوّ: - سيّدي الملازم، كنت أسأل هؤلاء الأفراد المريبين، عمّا يفعلونه هنا، خلف أستار سوداء مسدلة. يدّعون بأنّهم يعزفون الموسيقى، لكن شخصياً أميل إلى الاعتقاد في أنّهم يعقدون هنا اجتماعاً سريّاً يخفونه خلف مظهر تمرينٍ موسيقي...

بملامح متسائلة، كان الملازم يسمع تقرير مرؤوسه، متأمّلاً الكمان المهشّمَ أرضاً. كما أعمل البصر في الأشخاص الأربعة الواقفين أمامه، لائذين بالصّمت، حذرين، عدائيّين وإن كانوا خائفين. ولاحظ الملازم أنّ الشّابة تتأبّط ذراع الرّجل ذي الوجه المتورّم، والشّعر المبعثر، الذي يسيل من جانب فمه خيط دم. قاطع الملازمُ تاناكا وهو يشير بذقنه إلى الآلة المكسورة:

- لماذا هذا الكمانُ مهشّمٌ؟

- أنا من هشّمه يا سيّدي الملازم.

- ولمَ هشّمته؟

أجاب العريف وهو يشير بسبّابته إلى يو: -لأنّ هذا قد نطق بكلمات مخلّةٍ بالأدب الواجب لجنود جلالة الإمبراطور.

ومرّةً أخرى إذ نطق تاناكا لفظَ «جلالة الإمبراطور» وقف مؤدّياً التحيّة العسكرية.

أجاب الملازم بصوتٍ هادئٍ، ونبرةٍ فيها شيءٌ من الخيبة: -أنت لا تعرف إذن يا عريف تاناكا، كم يكلّف كمانٌ من المال والجهد لصناعته...

- لقد أردتُ يا سيّدي الملازم أن أؤدّب رجلاً يحتاج إلى تأديب، **هيكوكومان**، شيوعيٌّ يعزف الموسيقى مع شناويّين، بينما نحن في حرب...

بلغت كلمة **هيكوكومان**، التي نطقها مرّةً أخرى صوتُ الجنديِّ

الفظِّ المدويُّ، حتّى أذن ري، فارتاع التلميذ، وتكوّر على نفسه، محبوساً في الحيزّ الضّيّق داخل الدولاب.

استدار الملازم إلى الرّجل المصاب، وسأله بأدبٍ عن اسم العمل الذي كانوا يعزفونه.

- **الرّباعية الوترية لشوبرت، المؤلّف ٢٩، D ٨٠٤**، يا سيّدي.

- **روزاموند؟**

- نعم هي. هل تعرفها؟

- قليلاً، إنّها معزوفة جميلة.

- أجل، رائعةُ الجمال. منذ أسابيع ونحن نتمرّن على هذه الموسيقى، أنا وزوجتي أيكو، وصديقَينا، السيّد كانغ سونغ، والسيّدي تشِنغ وانغ.

انحنى الملازمُ قليلاً وهو يحيّيهم تحيّةً عسكرية. هزّ الرّجلان، ويانفِن التي كانت ما تزال تتأبّط ذراع يو، رؤوسهم هزّةً خفيفة.

سأله الملازم بنبرةٍ حزينة ومنزعجة في آن: - هذا إذن كمانك؟

- أجل... لقد صار المسكين في حالٍ يرثى لها...

أخذ الملازم يتأمّل، عبر مشط الكمان المهشّمِ، الرّوحَ الذي انكسر نصفين.

- هل هو كمانٌ عتيقٌ، صَنْعةُ معلّمٍ قديم؟

أجاب يو راسماً ابتسامةً حزينةً، وساخرةً بعض الشّيء: -بالطّبع

هو ليس من صُنع ستراديفاريوس، لكنّه كمانٌ قديمٌ، صنَعه معلّم فرنسيّ اسمه نيكولا فرانسوا فوييوم. ويعود تاريخ صنعه إلى ١٨٥٧. لا أظنّه كماناً رفيع القيمة. ليس باهظ السّعر، على الأقل لا يبلغ أسعار الكمانات التي صنَعها أخوه الكبير جان باتيست.

- تعزف الكمان الأوّل يا سيّدي...؟

- اسمي ميزوساوا. نعم، أنا عازفُ كمانٍ أوّل.

ارتعش رِي في العتمة حين التقطت أذناه اسمه العائليّ، ينطقه صوت أبيه الجهير.

- سيّدي ميزوساوا، هل تستطيع أن تعزف لنا شيئاً تؤكّد لنا به أنّكم فعلاً كنت تتمرّنون على الموسيقى؟ أمثلُ شيءٍ أن تمتِعنا، أنتَ وزوجتُك وأصدقاؤك، بمعزوفة **روزاموند**؛ لكن بالنّظر إلى حال الكمان الذي تهشّم بسبب سوء فهم...

تهيّأ للملازم أنّه يسمع خلفه حفيف بزّاتٍ خافتاً، وهزّات هواءٍ لا تكاد تبينُ، يسبّبها تنفّس بالكاد يسمع، بينما ترتسم على وجه العريف تاناكا، الذي حكّ رقبته مرّتين، تشنّجاتٌ عصبية وقشعريرةٌ في الجلد.

- أستطيع أن أعزف قطعةً لباخ، إن قبل السيّد سونغ إعارتي كمانَه...

سأل الملازمُ بأدبٍ: - هل تقبل أن تعيره كمانك يا سيّد سونغ؟

- بكلّ سرور. هو قطعاً ليس في مستوى موهبتك يا سيّدي

ميزوساوا، لكن لا يمكنني إلّا أن أسعد بأن تُشرّفَ كماني، فتعزف عليه باخ.

مدّ كانغ آلتَه ليو.

- شكراً يا كانغ، سآتي بقوسي إن سمحتَ.

- تفضّل يا سيّدي ميزوساوا.

تخلّص يو من ذراع يانفِن وهو يربّت على كتفها بيدٍ حنونٍ. ثمّ قصد المخزن، فعاد منه بقوسه. دوزن الكمان، بأن أدار مفاتيحه الأربعة بحركاتٍ متناهية الدقّة من يده اليسرى، بينما تربّت يده اليمنى بقوسه على الأوتار الأربعة، وتراً وتراً؛ وبين الفينة والأخرى كان يعدّل أيضاً براغي الضّبط. ثمّ، بعد دقيقةٍ طويلة، صار جاهزاً. أغمض عينيه، وأخذ نفساً عميقاً، ثمّ فتحهما.

- سأبدأ.

ألقى يو إلى أصدقائه الموسيقيّين بابتسامةٍ عذبةٍ حنونٍ، وحيّا الملازمَ بانحناءة خفيفة من رأسه. ثمّ وضع القوس على الأوتار.

موسيقى هادئة، رائقة، عميقة، شفّافة الوضوح، ارتفعت على مهلٍ في الصّمت الذي يكاد يبلغ درجة القدسية، الصّمت الذي لا شيء يجرحه، ولا أحد يجرؤ على تعكيره.

٨

كان يو يعزف مغمض العينين، رافعاً خافضاً جسمَه، متمايلاً يمنة ويسرة. بدأ المقطعُ مرحاً، متوثباً، متفتّحاً، كأنّه لحنٌ يرافق صبياً من أبناء المدينة، خرجَ في نزهة إلى البادية، ذات صباحٍ مشمسٍ، تدفعه سعادةُ الوجود، ويحثّه فضول اكتشاف جمال الطّبيعة المحيطة به. وفي لحظةٍ بعينها، غيّرت الموسيقى اللونَ والأجواء، كأنّما تُترجمُ قلقَ الصبيِّ المكبوتَ إذ يلمحُ غمامةً سوداءَ كبيرةً تلوح بغتةً في الأفق الذي كان قبلَ وهلةٍ فقط مشرقاً. على أنّها ليست إلا غمامةً عابرة. إذ بعدها بقليلٍ عادت تيمة البداية المرحة. كم مرّة، إلى الآن، سمع هذا الموتيف الباسم المتألّق؟ في تلك العودة الملحّة، وتلك الرّغبة في تطريز الشّكل نفسه إلى ما لا نهاية، كانت تُستشعرُ الرّابطةُ الرّاسخةُ بين المؤلّف ولحنه الصّغير المرح، مثل الارتباط الوجداني اللا مشروط الذي يجمعنا بأغنية تعلّمناها في طفولتنا، فظلّت تنبض في أعماقنا حيّةً، مثل نبع ماءٍ لا ينضبُ، نبعٍ يظلّ متأهّباً لينفجر في أيّ لحظة من لحظات عمرنا، من الطّفولة النّاعمة وحتّى الشّيخوخة

المتقدّمة. لكن، كان لا بدّ للنّزهة من نهاية. تباطأت الموسيقى بغتةً. بغتة انحنى جسد عازف الكمانِ، المتمايل يمنةً ويسرةً، كأنّما كان بحاجة إلى أن يركّز كامل طاقته في إبراز آخر تجلٍّ للّحن المحوري الذي شُكِّل حتّى تلك اللّحظة بطرقٍ شتّى متباينةٍ تبايناً رهيفاً. بالكاد استغرقت القطعة ثلاث دقائق. ثلاث دقائق، ظلّت النوتات الموسيقيّة، تتساقط أثناءها، مثل خيطٍ من قطرات ماءٍ فضيّة تتقاطر على ورقة بامبو، بعد وابلٍ عنيف. وبعدما انفصل القوسُ عن الأوتار، تلا النّوتةَ الأخيرة صمتٌ طويل.

فتح يو عينيه ونظر إلى أصدقائه. ارتفعت تصفيقاتٌ خجلى، سرعان ما كُبتت. أنصت الملازمُ إلى الموسيقى، من البداية إلى النّهاية، بعينين مغمضتين، خافضاً رأسه، شابكاً ذراعيه خلف وركيه، فلّما انتهى العزفُ نظرَ إلى العازف، وقال بصوتٍ مرتجف:

البارتيتا رقم ٣، في صيغة مي-كبيرة ليوهان سيباستيان باخ، الغافوتة على نمط الرُّندة.

- لو علمتُ مسبقاً لاستعددتُ... أمّا الآن، فأشعر أنّني أفسدت هذه التحفة...

- كلاّ يا سيّدي ميزوساوا، لقد عزفت بروعة.

تهيّأ لِيو أنّه يرى في عيني الجنديّ الواقف تحت ضوء النّيون الشّاحب، أثرَ سيل دموعٍ خفيّ.

واصل الملازم: - هل أنت موسيقيّ محترف؟

- كلاّ، أنا مدرس إنجليزيّ. إنّما أعزف الكمان هوايةً. أحبّ الموسيقى. أعتبر الموسيقى تراثاً إنسانياً، حتّى وإن كانت موسيقى آتية من حضارة أخرى، من بلدٍ نتحارب وإيّاه...

- إنّ الرّوزاموند، والغافوتة، ستعيشان أطول منّا، هذا مؤكّد. على أيّ حال، شكراً يا سيّد ميزوساوا لأنّك عزفت لنا. أظنّ أنّه قد بات واضحاً الآن أنّ السيّد ميزوساوا وأصدقاءه كانوا يعزفون الموسيقى معا. لقد ارتفعت الشّبهة، أليس كذلك أيّها العريف تاناكا؟

لم يجب العسكريُّ الذي، منذ أن ظهر الملازم، ظلّ واقفاً مستقيماً كشمعةٍ، ينظر في الفراغ، مرتجفاً تخنقه التّشنّجات.

٩

وإذّاك دخل إلى الصالة جنديٌّ مستعجلاً، وتوجّه إلى الملازم.

- سيّدي الملازم، لقد أتيت أحمل إليك أمراً من القيادة العامّة.

- أيّ أمرٍ.

- جميع المشبوهين الذين تمّ التحقيق معهم، بلا استثناءٍ، يجب أن يُقتادوا إلى مركز القيادة العامّة يا سيّدي الملازم...

- كلّ الأشخاص الذين تمّ التحقيق معهم؟

- نعم، يا سيّدي الملازم.

- بلا استثناء؟

- نعم يا سيّدي الملازم.

ارتاح وجه العريف تاكانا رُبع ثانية. كان الجنديّ القصير البدين الذي لم يجرؤ رئيسه على النّظر إليه، يرقص في داخله طرباً، من غير أن يفصح مظهرُه عمّا يمكنه أن يعكّر النّظامَ الظّاهريّ

للأشياء. ومع ذلك كان الجميع يسمع بوضوحٍ الجلبة الصّامتة لتهكّمه السّاخر.

قال الملازم بصوتٍ خفيضٍ، وهو يدنو من يو: - أسمعت يا سيّدي ميزوساوا؟ أنا مضطرٌّ إلى أن أرسلك إلى مركز القيادة العامّة، أنت وزوجتك وأصدقاؤك. أتمنّى أن يُطلق سراحك سريعاً.

صاح الملازم: - أيّها العريف!

أجاب تاناكا وهو ينتصب بقامته، ويحدّق في قبّعة رئيسه:

- نعم يا سيّدي الملازم.

- أكلّفك بأن تقتادهم إلى مقرّ القيادة العامّة. هيّا.

- نعم، يا...

وقبل أن يتمّ العريف جوابَه، قاطعته يانفِن ببرود، وهي تلتقط آلتها التي كانت قد وضعتها أرضاً حين ضرب الجنديُّ يو: - امنحنا يا سيّدي رجاءً الوقت لنخزن آلاتنا.

- طبعاً يا سيّدتي. تفضّلي.

قصدت يانفِن، والموسيقيَّين الآخرَين، المخزنَ من غير أن ينطقوا بكلمة، فأودعوا فيه آلاتهم. ولمّا خرجوا، أمر العريف تاناكا رجالَه بأن يقتادوا الزوجين المشبوهين والشناويّين.

وفي ثوانٍ، صارت الصالة خاوية. لم يبقَ غير الملازم، يغمره الصّمت المفاجئ الذي لا يجرحه غير وقع الخطى المبتعدة.

١٠

ألقى نظرةً على الكمان المعطوب. جثا. أمسكه برفقٍ بين يديه. هذا الجسد المتألّم، بأوتاره الأربعة المرخية التي ترسم منحنياتٍ قلقةً، شبيهةً بالأنابيب والأربطة التي تملأ وجهَ مصابٍ في حادثٍ خطير، أو ضحيّةِ قصفٍ أعمى. كان يتساءل عمّا ينبغي أن يصنع بالآلة. لاحظ في أقصى الغرفة دولاباً أوروبياً، دفعه حجمُه الهائلُ المصمت إلى التّساؤل كيف انتهى به المطاف هنا في هذه الصّالة، بمركز ثقافيٍّ بلديٍّ غامض. تقدّم صوب الدّولاب. وتوقّف أمام الأثاث الذي كان، على نحوٍ بيّنٍ، أقصر من قامته الرّشيقة. فوضع، بالعناية اللازمة، الكمانَ على المصطبة، عن شمال الدّولاب، كأنّما يضع رضيعاً نائماً برفقٍ وحذر في مهده.

ثمّ فتح ببطءٍ -كأنّما يعتذر عن تطفُّله- البابَ الذي كانت حافتُه العليا بالكاد تتجاوز مستوى صدره. اقتحم الضّوءُ الدّولابَ، فقسمَ بخطٍ فاصلٍ مائلٍ الفضاءَ الدّاخليّ قسمةً ضِيزى بين منطقة الظّلّ، ومنطقة النّور. واقتحمت مجالَ الضّابطِ البصريَّ قدمان يغطّيهما

جوربان أخضران. أذهله الظّهور المفاجئُ للقدمين البيضاوين العاريتين حتّى الرّكبتين. وامتدّت يدُ طفلٍ راجفة، فأخذت بتردّد كتاباً موضوعاً عند قدميه.

وبالكاد وجد الملازم الوقت لقراءة عنوان الكتاب «**قُل لي كيف ستعيش**». انحنى بهدوء، بهدوء شديد كأنّما يتردّد... والتقت عيناه اللامعتان كعيني قطّةٍ تترصّد في الظّلام، بعيني صبيٍّ أبْهَتَهُما الخوفُ. ابتسم له إذ لم يرِد أن يُفزعه. ثمّ مال على المصطبة يسار الدّولاب، فأخذ الكمان. وبغتةً تناهى صوتُ رجلٍ يصرخ من بعيدٍ، صوتٌ أشبه ببوق يعزف في كواليس مسرح:

- كوروكامي! كوروكامي!

استدار الملازم تلقائياً، وكأنّما يلتمس مصدر الصّوت، كأنّما يحاول أن يحدّد صاحب النّداء. اعترى وجهه تشنّجٌ عصبيّ. ومن غير أن ينبس بكلمةٍ، ناول الصبيَّ الكمان المهشّم، الذي صار تقريباً مسطّحاً، والذي كان يرسم بأوتاره الأربعة هيأة حيوانٍ يتألّم.

تردّد الصّبيُّ، لكنّه في نهاية المطاف تناول الآلة التالفة بيديه في توجّس:

- كوروكامي! أيّها الملازم كوروكامي!

تهيّأ للملازم أنّه يسمع صوت النّقيب هونجو. فسارع إلى إغلاق باب الدّولاب، وهو يحدّق مرّةً أخيرةً في الطّفل المرتجف.

وأتبعَ النّظرةَ القلقة الذّاهلة التي رماه بها، بإرهاصة ابتسامةٍ، سرعانَ ما كبحها، إذ اقترب الشّخص الذي كان ينادي باسمه.

- آه، ها أنت ذا! ماذا تصنع هنا يا كوروكامي؟ هيّا، سنذهبُ، لا وقت لدينا نضيّعه.

- نعم، يا سيّدي النّقيب! كنت أتأكّد ممّا إذا كنّا قد نسينا شيئاً...

وسط عتمة الدّولاب كان رِي يسمع بوضوحٍ صوتَ رجلٍ قوياً، فظنّه صوت الرّجل الذي كان يصيح، منذ لحظات، «كاروكامي!».

اندهش من اسم كوروكامي، إذ صعب عليه أن يتخيّل أنّ «أسوَد (kuro) الشّعر (kami)» يمكن أن يكون اسماً عائلياً.

قال الرّجل كلماتٍ لم يفهمها الصبيّ جيّداً، وقد نطقها بنبرةٍ سلطوية، أو بنبرةِ شخصٍ غاضبٍ جداً. وقد أخافته. وأجابه صوتُ رجلٍ آخر، بنبرةٍ مرتاحةٍ، هادئةٍ، تكاد تكون عذبة. أهوَ صوتُ الرّجل الذي أعطاهُ الكمان؟

شيئاً فشيئاً ابتعد الصّوتان. وكذلك ابتعدت الخطى. وبقيَ رِي في العتمة. ثمّ ما لبث أن ساد الصّمتُ، ولم يعد يسمع شيئاً. أو بالأحرى كان يسمع عند طرف دهليز أذنه الطّويل، الغناءَ الواهنَ العنيدَ لحشرات الزّيز الموشكة على الموت. إنّه الطّنين؛ كلمةٌ تعلّمها مؤخّراً من عند والده. هو صوت الصّمت بمعنى ما. نظر من ثقب القفل. الغرفة مظلمة بفعل السّتائر السوداء المسدلة، لكنّ أضواء النيون تنيرها بما يكفي ليدرك أنّه لم يعد ثمّة أحد. كم السّاعة؟ لم

يحلّ اللّيل بعد، لكنّه بدأ يشعر بالجوع. أرخى أذنه... وقال، بالفعل لم يعد ثمّة أحد. ثمّ رفع مزلاج الدولاب بأكبر قدرٍ ممكن من الهدوء، وحاول أن يوارب الباب، من غير أن يحدث أدنى صوت. لكنّ الباب صرَّ... قال لنفسه: «اصمت! انتظر قليلاً... لا جديدَ، ما يزال المكان صامتاً. لم يعد ثمّة أحد. انتعل حذاء القماش الذي كان قد نزعُه كيلا يحدث صوتاً. وغادر مكمنه، حاملاً الكمان التالف بيديه، وكتابه في جيب سرواله. خطا خطواتٍ متردّدة؛ يصعب عليه المشيُ: نملٌ يسرح على قدميه! توقّف. انتظر ثلاث ثوانٍ. ثمّ واصل مشيه. عبر الصالة الكبيرة وتقدّم نحو المخرج. دفع باب الدّخولِ الثقيلَ بكامل جسده. هو الآن أمام مبنى المركز الثقافي البلديّ. رفع عينيه إلى السّماء. النّهار يرحل. والعتمة بدأت تشتدُّ. يشعر بنفسه وحيداً، تائهاً، وقد فُرّق بينه وبين أبيه. صعدت إلى حلقه شهقاتٌ. تسحقه قوّةٌ سوداءُ، هائلةٌ، تلقي عليه بظلال شائهة، تضطهده. أناسٌ يعبرون الشّارع. ويجوب الطّرقات جنودٌ من الشّرطة المدنية، حاملين بنادقهم على أكتافهم. ورِي لا يرى حوله أيّ طفل. أين ذهب أبوه؟ هل سيعود إلى هنا؟ أم سيقصد المنزل مباشرة؟ سلك الشّارع المفضي إلى المنزل. حثَّ خطاهُ... حاملاً الكمان المخرَّب كأنّه حيوانٌ محتضرٌ يريد أن ينقذه من المفترس، ومن شرّ صيّادٍ لا يرحم...».

١١

بقدر ما كان اللّيلُ يحتل حيّزَ النّهار، كانت أطيافُ البشر تختفي من الشّارع. وكان رِي يمشي منذ أكثر من عشر دقائق قاصداً منزله الواقعَ على بعد عشرين دقيقة تقريباً من المركز الثقافيّ. كانت الطّريق تتشعّب إلى أزقّة متداخلة كالمتاهة، لكنّه لم يكن يجد صعوبة في الوصول إلى منزله لكثرة ما سلك الطّريق مع والده.

ولمّا بلغ مفترق طرقٍ صغيراً، حيث عمود نورٍ شاحب، يضيء طرف تحويطةٍ من قصب البامبو تحجبُ جذع شجيرة كرز، انتبه إلى وجود كلبٍ من فصيلة الشّيبا؛ ومع أنّ الكلب لم يكن مقيّداً أو مربوطاً إلى سلسلة، فإنّه كان يقف ساكناً خلف عمود النّور، قائمَ الأذنين، يحدّق بعينيه في الصّبيّ. يحرّك ذات اليمين وذات الشّمال ذيلَه المعقوف طبيعياً فوق ظهره. خفّف رِي السّيرَ. كان يخشى أن يفزع الكلبُ من الطّيف الآتي إليه في الظّلام، فيهاجمه ويغرز فيه أنيابه. وحرص رِي على ألاّ تلتقي نظرتُه بنظرة الكلب. ومرّ بهدوءٍ، متظاهراً بأنّه لا يهتمّ بالحذر الصّامت للحيوان. وتقدّم على

ذاك النّحو، عشرين متراً تقريباً، ثمّ التفت بخوف ليتحقّق ممّا إذا كان قد نجا من هجومٍ محتملٍ يشنّه عليه كلب الشّيبا. لكن، لا، لقد كان الكلب خلفَه، يتبعه على بعد خمسة أمتارٍ أو ستّة فقط. حثّ الصبيُّ خطاه، ثمّ توقّف بغتة. فتوقّف الكلب أيضاً. ولم تكن عيناه تغفلانه. ولاحظ التّلميذ أنّ ذيل الشّيبا ما يزال يتحرّك كبندول ساعة. استأنف السّير، فخطا نحو عشرِ خطواتٍ أُخر، ثمّ التفت مرّةً أخرى. الحال كما هو. لقد تبعه الكلب، وما تزال تفصله عنه المسافةُ نفسُها التي كان قد لاحظها حين التفت إليه لحظاتٍ قبل ذلك. أدرك رِي أنّ الحيوان لم يكن يريد به سوءاً. وقد صار الآن قريباً جداً من منزله. جثا على ركبتيه يتأمّل الكلب الذي كان يصطبغ بأطياف مذهّبةٍ يخلعُها عليه نورُ عمود قائمٍ على بعد أمتارٍ. اقترب الكلب بهدوءٍ من الصّبي. على بعد نحو خمسين سنتمتراً من الأرض، تلامس وجها الكلب والصّبيّ ذي الأحد عشر ربيعاً، كأنّما سيقبلاّن بعضهما بعضاً. ظلّ كلّ منهما يتأمّل الآخر في صمتٍ. ثمّ أخيراً جرؤ رِي فمدّ إلى الكلب يده. وبعد برهةِ تردّدٍ فعل الكلب مثل فعل الصّبيّ.

- أنت أيضاً وحيد؟

تأمّل رِي طويلاً قائمةَ الكلب في يده. وعلى السّطح غير المنتظم للزّقاق الطّينيّ، كان يُرى ظلُّ الصبيّ وظلّ الكلب متداخلين، أحدهما يغطّي الآخر.

- هل تريد أن تأتي معي؟

قام ري، واستأنف المسير ملقياً نظرة من فوق الكلب الذي اتّخذ تلقائياً موضعه بجانب قدمه اليسرى، رافعاً عينيه الوديعتين إلى الصبيّ.

- تأتي معي! ألن تعود إلى منزلك؟ هل أنت وحيدٌ مثلي؟

توقّف الصبيّ، وانحنى، فطوّق بذراعيه رقبة الكلب الذي لم يبدِ أيّ انزعاجٍ، أو مقاومة. التقت عيناهما. سكن الكلبُ، بينما يتأمّل الصبيّ عينيه المفتوحتين وُسعَهُما، فيخال أنّه يرى فيهما ما يشبه لهيباً متراقصاً. ثمّ فجأةً لعق الكلبُ وجه الصبيّ، مطلقاً آناتٍ صغيرةً لا تبين.

قال رِي: - حسناً. هيّا بنا.

دقائق بعد ذلك بلغا باباً خشبياً زلِقاً مزدوجاً. كان ذاك مدخل منزل يو ميزوساوا، كما تشير إلى ذلك اللافتةُ الصّغيرة الموضوعة أعلى الباب، والتي خُطّت عليها بعناية الرّسومُ الحرفية الثلاثة التي توافق اسمَيه العائليَّ والشّخصيَّ. وكان المنزل كوخاً من ألواحَ مطليّة بالأسود. يستأجره ميزوساوا جنبَ كوخٍ آخرَ مماثل. وكان الكوخان معاً غارقين في عتمةٍ سوداء كالحبر، يضيئهما بنورٍ برتقاليّ شاحبٍ مصباحُ عمودٍ خشبٍ بائسٌ.

- هنا أعيش. أوتوسان (أبي) لم يعد بعد. لا أستطيع أن أفتح البابَ، لأنّ المفتاح معه. سوف ننتظره هنا.

ظلّ كلب الشّيبا يتفحّص رِي وهو يتكلّمُ كأنّما يحاول إقناع

نفسه بعودة والده الوشيكة. وما يزال طقسُ الخريف يشتدّ تدريجياً، والمحرار ينزلُ إلى درجةٍ تجعل المرءَ يرتجف ما إن يهبط اللّيل. بدأ ري يشعر بالبرد. والسروال القصير الذي يرتديه -فهو مثل جميع أقرانه، يظلّ يلبس يوم الأحد سروالاً قصيراً، إلى أن يحلّ الشّتاء- لا يناسب الطّقس. تكوّم حول نفسه لصق الباب المزدوج. وكان الكلب حتّى تلك اللّحظة مقعياً على قائمتيه الخلفيّتين، فلّما رأى الصبيَّ يتكوّم حول نفسه مقروراً، انزلق بخفّةٍ بين صدره وساقيه المثنيّتين. وشعرَ رِي بانتشار الحرارة الصّادرة عن بطن الكلبِ الذي ما إن مرّت لحظاتٌ حتّى أغمض عينيه. ثمّ ما لبث الصبيّ أن غرق في النّوم.

١٢

- ري-كون، ماذا تفعل هنا؟

أيقظ الصبيَّ صوتُ رجلٍ. رفع رأسه وهو يفرك عينيه.

- آه، فيليبو-سان...

– Nanishiteruno, kokode, konna jikan ni, hitoride?

(ماذا تفعل هنا، وحدك في هذه السّاعة المتأخّرة؟).

أدار الشّيبا، الملتصقُ بجسد رِي الصّغير، بغتةً رأسَه، وحدّق بنظرةٍ متفحّصةٍ في وجه الزّائر المسائيِّ المندهشِ.

II

Andante

١

رنّ الهاتفُ.

- ألو؟

- جاك، هذه أنا. هل تسمع إذاعة فرانس موزيك؟

- كلاّ، أنا أحاول التركيز في أمور معقّدة بعض الشّيء. ما الذي يحدث؟

كان الرّجل ذو الشعر الأبيض والجبين البارز، ينظرُ في الفراغ من فوق نظارته المتدرّجة التي انزلقت على طرف أنفه.

- لقد أعلنوا أنّ شابّةً يابانية في الثالثة والعشرين من عمرها فازت بالجائزة الأولى **لمسابقة العزف على الكمان لودفيغ فان بيتهوفن ببرلين**. حدث ذلك بالأمس. اسمُها ميدوري يامازاكي...

- ...

- ألو... هل تسمعني؟

- ...

- ألو جاك، هل تسمعني؟

- نعم، عذراً. نعم، بالطّبع، أسمعك.

- وإذن، هل سبق أن سمعت بميدوري يامازاكي؟

- كلاّ... لا أظن... إه... ربّما سمعتُ... مهلاً... أجل، حدّثني أحدهم مؤخّراً عن عازفة تسمّى ميدوري... لكن هل هي ميدوري يامازاكي؟ لست متأكّداً...

- أتدري، لقد حفظتُ الاسمَ بسهولةٍ، لأنّه مثل اسم الويسكي

- آه، صحيح. كما تعلمين، إنّ يامازاكي اسمٌ عائليٌّ ذائعٌ في اليابان. كما أنّ ميدوري اسمٌ رائج. ثمّة مثلاً ميدوري غوتو[1]... ولا بدّ أنّ ثمّة، في الوسط الموسيقي، عشرات ممّن يحملون اسم يامازاكي، ومئات ممّن اسمهنَّ ميدوري...

- بما أنك تعرف عدداً لا بأس به من الموسيقيّين اليابانيّين، فقد أردت أن أعرف ما إذا كان الاسم معروفاً عندك، وهذا كلّ ما في الأمر.

---

(١) عازفة كمان يابانية شهيرة.

- ربّما ذُكر لي اسمُها، لكنّني لا أهتمُّ تلقائياً بكلّ الأسماء اليابانية. تعلمين، في أيّامنا هذه، لم يعد نادراً أن تسمع بيابانيّة أو يابانيّ يفوز بجائزة في مسابقة دولية...

- نعم، أنت محقٌّ... حسناً، لن أتأخّر. إلى...

- هل أنتِ بخير يا هيلين؟ هل سارت الأمور اليوم كما ينبغي؟

- نعم، بخير. سوف أحكي لك عن لقائي بعازفة التشيلو! ومن جانبك؟

- لا مشكلة. أنا أنتظر عازف الكمان. هيّا، إلى المساء!

- نعم. سأتسوّق في طريقي. هل تريد أن أحضر لك شيئاً؟

- كلاّ، لا شيءَ تحديداً.

أقفل الرّجلُ المسنُّ الخطَّ. كان يرتدي وزرة كحليةً تملؤها آثار النّشارة في غير ما موضع. عاد إلى منضدته الطّويلة حيث يوجد، بجانب آلةِ تشيلو مفتوحةٍ تُصلَّحُ، كمانٌ أو ألتو في طور التّصنيع، ما يزالُ خشباً خامّاً لم يطلَ بعد. ولم يكن للآلة بعدُ مقبضٌ ولا مفاتيح، لكنّ بدنَها المجوّف جاهزٌ، وكلّ أجزائها الأساسية جُمعت، وركّبت بعناية. أخذ الرّجل ذو الوزرة الكحلية يتأمّلُ صنيعَه في رضاً، ممسكاً إيّاه بيده اليسرى. وكالعادة، ذكّرته فتحتا التّصويت بالعينين المائلتين المديدتين لقناعٍ ياباني (أوكام). إنّ الفتحتين تحوّلان واجهة الآلة المحدّبة الرّشيقة، إلى وجه امرأةٍ ضاحكٍ مشرق. أمامَه، على الجدار، عُلّقت تشكيلة

مذهلةٌ من أدواتِ النّجارةِ وصناعةِ الكمان؛ وفوقها، عُلّقَ دبلومٌ مُبَرْوَز:

Cremona Scuola Internazionale di Liuteria

وبعد دقائق، انزعجَ ببصرِه عن طفلِه الذي ما يزال في مرحلته الجنينية، ليتعلّقَ بالآلات الوترية الكثيرة المسمّرة إلى لوحٍ بطول عشرة أمتار، معلّقٍ إلى السّقفِ ويشغل طولَ الجدار الأبيض، من أقصاه إلى أقصاه. أدار كرسيَّه شطرَ مجموعة آلات الكمان والألتو المصفوفة بدقّة.

كلبٌ متوسّطُ القامة، قصيرُ الوبر، كان يغفو عند قدميّ الصّانع، فرفع رأسه بغتةً وحدّق في وجه الشّيخ.

- كلاّ يا مومو، كلاّ. السّاعة لم تتجاوز الرّابعة. لننتظر قليلاً، اتّفقنا؟

تحرّكت الأذنان المنتصبتان فوق الرأس البُنيّ الفاتح، ربعَ ثانيةٍ لتلتقطا كلمات الشّيخ. نزع الرّجل ذو الوزرة الكحلية نظاراتٍ يربطها بسلسلة. ودلّك على مهلٍ جفنيه بأصابع يديه معاً، مثلما يفعل السّاعاتي أو أيّ حرفيٍّ بعد تعبِ يومٍ طويلٍ في عمل يتطلّب تركيزاً كبيراً. فتح عينيه. شردت نظرتُه في الفراغ؛ غرق في التّأمل. أغلق عينيه مرّةً أخرى. أرخى ظهره على مسند المقعد، وشبك يديه، وغاص في حالِ تروٍّ لم يخرج منها إلّا بعد دقائق طوال.

قام، فقصد المطبخ عابراً صالوناً صغيراً حيث ثلاث مقاعد من

جلدٍ أسوَدَ تحيط بطاولةٍ زجاجيّة مستطيلة. أعدّ لنفسه قهوة، وعاد ليجلس في المقعد لصق المكتبة المنحوتة في الجدار الأقصى. فأتت الكلبة -لأنّ مومو اسمٌ أُطلق على أنثى-، ترقد على قدميه.

مرةً أخرى تعلّق بصرُ الرّجل ذي الوزرة الكحلية بالآلات المسمّرة في اللّوح الأفقيّ.

أنهى قهوته، وقام، وقبل أن يعود إلى عمله، شغّل المذياع فانطلق منه صوت امرأةٍ عذبٌ، سلس، منغّم:

- استمعتم إلى الرّباعية الوترية على ري ماجور، opus ٣-١٨، لبتهوفن؛ أدّاه الرّباعي الوتريّ ألبان بِرغ.

رنّ جرسُ الباب.

٢

فتح صانع الكمانات الباب. فوجد نفسه أمام رجلٍ في الثلاثين من عمره.

- مرحبا، كريستوف روبنس، أتيت قبل الموعد بقليل، لا يزعجك الأمر؟

- كلاّ، مطلقاً. تشرّفنا. جاك مايار.

- تشرّفنا. أتيت من طرف دافيد تريشار.

- نعم، أعرف. تفضّل.

تقدّمَ الشّيخُ الشّابَ، إلى الصّالون الصّغير.

- شكراً لأنّك استقبلتني على وجه الاستعجال.

- العفو. لديك حفلٌ مساءَ الغد، أليس كذلك؟

- نعم، تماماً. لكنّ كماني ليس في حالٍ جيّدة، منذ أن رجعت إلى باريس أوّل أمس. لا يرنُّ كالعادة...

- هل سافرت بالطّائرة؟ ومن أين أتيت؟

- كنت في سان-بطرسبرغ.

- وقبل سان-بطرسبرغ؟

- مومباي، بالهند.

- وقبل مومباي؟

- كندا.

- لا بدّ أنّ كمانك قد عانى من كثرة التنقّل. سوف ألقي عليه نظرة.

كان الرّجلان ما يزالان واقفين في الصّالون.

قال صانع الكمنجات: - اجلس فضلاً. هل تريد قهوة؟ لديّ شاي أيضاً.

- إه... لطفٌ منك، سأتناول قليلاً من الشّاي.

- أيّ شاي تفضّل؟ الأسود أو الأخضر؟ عندي معاً.

- شاي أخضر فضلاً.

اختفى جاك في المطبخ. وجعل كريستوف روبنس يجيل عينيه في المكان: أدهشَه عددُ آلات الكمان والألتو المعلّقة. لم يرَ قطُّ مثل هذا القدر من الآلات في مَشغل. ولصق الجدار المقابل لذاك الذي عُلّقت فيه آلات الكمان والألتو، عُلّقت ثلاث آلات تشيلو أثارَه في إحداها اللّونُ الشّديد الغماقة، إذ ذكّره بتحفةٍ من تُحف دومينيكو

مونتانيانا كان قد تأمّلها سنواتٍ من قبلُ عند موسيقيٍّ مجريٍّ ببودابست.

عاد جاك. على صينيّة حمراء مستديرة وُضع فنجانان: أحدهما من خزف بورسلان، ولا مقبض له، تزيّنه أشكالُ زهور زرقاء، والثاني من خزف سيراميك أسود بسيط الشّكل. وضع صانع الكمانات الصينيّة على طاولة الزّجاج. جلس بإزاء عازف الكمان، وقدّم إليه فنجان البورسلان. وخيّم بين الرّجلين صمتٌ.

شرب كلاهما رشفتَه الأولى من الشّاي.

- شايُك ممتاز.

- آه، حقاً؟ هل أعجبك؟ أليس قوياً أكثر ممّا ينبغي؟

- كلاّ، كلاّ، هكذا أحبّه.

أتمّ جاك شربَ شايه.

- حسناً، سوف أفحص كمانك.

سلّم عازفُ الكمان للصّانعِ آلتَه التي كان، حتّى تلك اللّحظة، يضعها على ركبتيه.

- شكراً. أرجو أن تكون صيانةٌ خفيفةٌ كافيةً. هيّا أراك بعد قليل.

أخذ جاك الكمان وقصد منضدته. لبس نظارته، أشعل مصباح المكتب، فتح الغمد، أخرج الآلة وبدأ يفحصها فوراً.

صاح الصّانع من أمام منضدته، بحماسة فشل في أن يخفيها: - كمانُك صنْعَةُ فويّيوم يا سيّدي.

أجاب كريستوف بصوت مرتفع، من غير أن يتحرّك من الكنبة: - نعم. ألم يخبرك دافيد بذلك؟

ثمّ ران على المكان صمتٌ مطلق. لم يكن يتردّد، بين الفينة والأخرى، سوى صوتٍ لا يكاد يُسمع، صوت العملية المعقّدة الدّقيقة التي يصعب تخيّل كيف تتمّ. هكذا مرّت نصفُ ساعةٍ لم يكن لدى كريستوف ما يفعل فيها، إلا تأمّلَ الآلاتِ المعروضة، وكتبِ صناعة الكمان، وعددٍ معتبر من السيديهات يملأ المكتبة.

ثمّ أخيراً عاد الصّانع حاملاً الكمان والقوس.

- جرِّب، رجاءً.

وضع الآلة والقوس على الطّاولة الخشبية التي تفصل الصالون الصّغيرَ عن المشغل. قام عازف الكمان مستعجلاً. أخذ يدوزنُ كمانه، ناقراً الأوتارَ نقراتٍ سريعة من قوسه.

- أرى أنّه صار أفضل.

- كان يحتاج إلى ضبط... لا بل قد أقول كان يحتاج إلى **علاج** ... غيَّرتُ الفَرسَ؛ لم تكن مستقيمةً كما يجب، وقد حفرتها الأوتار أعمق ممّا ينبغي. ثمّ زحزحتُ الرّوحَ بنحو عُشر ميليمتر... كما قلتُ لك آنفاً، أعتقد أنّه بالفعل عانى من التّقلبات التي عاشها مؤخّراً. إنّ الكمان كائنٌ حسّاسٌ كما تعلم...

من دون أن يعلّق كريستوف روبنس على كلام الصّانع، سارع إلى عزف Chaconne لباخ. غاص جاك في مقعده ليُنصت إلى مقطوعةٍ سبق أن سمعها عدداً لا يحصى من المرّات. طيلة سنوات تكوينه الطّويلة، كم مرّةً امتُحنَ شُغلُه في محكّ هذه المقطوعة التي تعتبر من الأحجار الرّئيسة في أدبيات الكمان! وفي كلّ مرةّ يسمع فيها المقطوعةَ، تكون فرصةً بالنّسبة إليه ليرتفع إلى مستوى العالم الصوتيّ الذي تولّده آلةٌ صنعها معلّمٌ كبيرٌ، وفحصها هو في أدقّ دقائقِها.

فلمّا أتمّ العازفُ عزفَ مطلع لا شاكون التي تُعزفُ بوتر مزدوج، وأيضاً بوتر ثلاثي، بل حتّى بوترٍ رباعيّ؛ توقف.

- ممتاز يا سيّدي مايار. سعيدٌ لأنّني استعدتُ كماني الذي أعرفه.

- كلامك يطمئنني. لديك آلةٌ رائعة! ليس بالشّيء الهيّن امتلاك آلةٍ من صنع فوييوم!

- نعم، أنا سعيدٌ جداً بامتلاكه. وأنت بالنّسبة إليه منقذٌ... وكذلك بالنّسبة إليّ أنا بالطّبع! أشكرك صادقاً. بكم أدين لك؟

- ... ١٥٠ يورو، هل يناسبك؟

- حسنٌ جداً. هل لي أن أدفع لك بالشّيك؟

- طبعاً.

أخرج كريستوف روبنس دفتر شيكاته، ووقّع الشّيك، وهو يلتفتُ لثانيةٍ شطرَ آلات الكمان والألتو المعلّقة.

سأله: - هل هذه الآلاتُ صنعتُك؟

- نعم، أغلبها. أربعةٌ منها ليست لي، لكن البقيّة صنعتي. عددُها ثمانية وثلاثون.

- هل يمكنني أن أجرّب بعضها؟

- نعم، إن شئتَ.

دنا جاك مايار من صفّ آلاته. تفحّصها عن كثب، فاختار منها ثلاثةً وضعها على الطّاولة الكبيرة.

- هذه ثلاثٌ صنعتها في حقب مختلفة من مسيرتي. وأنا مرتبطٌ بها أشدّ الارتباط. بإمكانك أن تجرّبها. وأرجو أن تقول لي ما رأيك.

عزف كريستوف روبنس مجدّداً مقطوعة شاكون على الآلات الثلاث التي عرضها عليه جاك مايار. قضى في العزف على كلّ آلةٍ منها نحو دقيقتين أو ثلاث، فألفاها كلّها رائعةً، بسبب الصفاء الكريستاليّ الذي يميّزُ الطّبقات الخفيضة، كما العمقِ اللّيليِّ الترابيّ الذي يسِمُ الطّبقات الحادّة. كما أدهشه توازنٌ صوتيٌّ نادرٌ ولافت:

- أعجبتني ثلاثتُها. لكنّ اختياري استقرّ على واحدٍ... لا أجرؤ على أن أسألك السّعرَ...

- الثالث ليس للبيع. أمّا الاثنين الآخرين، فيمكن أن نتحدّث

في شأنهما. عُد إليَّ إن أعجبك هذا أو ذاك. ثمّ إنّ عندي كما ترى كمانات أخرى، وبعضها يفوق هذه روعةً.

- للأسف! حقاً للأسف! لقد وقع اختياري تحديداً على الثالث..

- حقاً؟

- نعم، إنّه مختلفٌ عن الآخرين... أراه عجيباً، صفاؤُه ومداه الصّوتيُّ فاتنين...

- آه، حقاً؟ إنّه بالفعل مختلف عن الآخرين. شعرتَ بذلك... أنتَ حسّاسٌ تجاه الاختلاف...

- سيّدي مايار، سوف أعود إليك. لا أستطيع أن أحدّد متّى، لكنّني سأعود بالتأكيد. أرغب في أن أطّلع على عملك اطّلاعاً أعمقَ. سأترك لك بياناتي.

ثمّ أخرج العازف بطاقةً ومدّها إلى الصّانع. وبالمثل فعل الصّانع.

- كلّ شيء مدوّنٌ هنا: العنوان، الهاتف، الإيميل، وأوقات عمل المَشغل.

- حسناً. شكراً جزيلاً.

صافحَ الشّيخُ ذو الوزرة الكحليّة الموسيقيَّ. وسحبَ الباب الزّجاجيّ، وأدار اللافتة الصّغيرة، ليُريَ الزّوارَ من الجانب الآخر أنّ المشغل «مُقفلٌ».

ثمّ انصرفَ إلى إتمام شُغله.

٣

فرغ جاك وهيلين من ملء غسّالة الأواني. أمّا مومو، فلمّا أفرغت وعاءَها قبل أن يفرغَ رفيقاها الآدميّان من وجبتهما، فقد استقرّت في موضعها المعتاد لصق الأريكة بغرفة المعيشة الكبيرة. وكان يفصل هذه الغرفة عن مشغل جاك جدارٌ سميكٌ يفضي، من جهة المشغل، إلى الصّالون الصّغير. وككلّ مساءٍ كانت مومو تنتظر أن ينتهي صاحبها من عشائه.

- ينبغي أن أطلعَك على ما وجدته في جريدة ليبراسيون.

أخرجت هيلين الجريدة من حقيبة الظّهر التي كانت قد تركتها على الكنبة حين دخلت. أشارت بسبّابتها إلى مقالٍ صغير في الصّفحتين الثقافيّتين المفرودتين على الطّاولة البيضاوية.

- لقد وقعتُ على هذا المقال بعد اتّصالنا ظهيرة اليوم. فيه تقديمٌ لميدوري يامازاكي، الفائزة بالجائزة الأولى لمسابقة العزف على الكمان لودفيغ فان بيتهوفن ببرلين.

كانت هيلين واقفةً تحدّق في جاك الذي مال على كلبته الشّيبا يداعب رأسَها.

- سوف ترى، إنّ ما كُتب مثيرٌ للاهتمام. هل أعدُّ شاياً كالعادة؟

- نعم، فضلاً.

دقائق بعد ذلك، عادت هيلين تحمل إبريق شايٍّ، وفنجانَين من غير مقبض، في الصينية الدائريّة المطلية بالأحمر التي كان جاك قد قدّم فيها الشّاي لكريستوف روبنس. كما وضعت المرأةُ حلوتَي مادلين في صحنٍ صغير. وجلست على الكنبة بجوار جاك.

- رأيتَ، إنّ لها مساراً لامعاً.

استعادت هيلين الجريدة، وجعلت تقرأ بصوتٍ عالٍ بعضاً من الأسطر المخصّصة لعازفة الكمان اليابانية الشّابة، ميدوري يامازاكي:

«حصلَت على شهادةٍ من الجامعة الوطنية للفنون الجميلة والموسيقى بطوكيو، ثمّ واصلت تكوينها الموسيقي بنيويورك وجنيف وباريس، على يد أساتذة كمانٍ كبارٍ من أمثال دافيد زوكرمان، وميشيل شتاينبرغ وجون جاك أولار. وقد وُلدت لأسرةٍ من هواة الموسيقى. لكن، بحسب ما قالت، فإنّ جدّها لأمّها هو من اضطلع بدورٍ حاسمٍ في إيقاظ شغفِها بالموسيقى، وتوجيهها في اختيار مسارها الموسيقيّ. وتعزف على كمانٍ ستراديفاريوس أعارتها إيّاهُ مؤسّسة اليابان...».

فلمّ أتمّت هيلين القراءة، تناولت فنجانها لترشف رشفةً من الشّاي الأخضر الذي تشربه كلّ مساءٍ طلباً لنومٍ مريح.

- كلّ سنةٍ يأتي، قطعاً، عشراتٌ من اليابانيّين ليطوّروا أنفسهم في أوروبا...

- صحيحٌ، هم كُثر. حتّى أنّ في منزلي أحدَهُم!

- بعضهم يستطيع أن يتميّزَ وينفذَ من بين الأوروبيّين، ويجترح مساراً عالميّاً. ولا بدّ من أنّ هذه هي حالُ ميدوري يامازاكي.. لكن ثمّة أيضاً من يختفون...

- هذه سوف نتابعها...

لم يجب جاك. دفعةً واحدةً أتى على فنجانه.

- عادت إليك إذن عازفةُ التشيلو؟

- نعم. وقد استقرّ اختيارها أخيراً، بعد طول تردّد! تردّدت، وتردّدت، وتردّدت... والآن أظنّها ستصير زبونةً دائمةً. على أيّ حالٍ لقد أبدت حماسةً كبيرة لأقواسي.

- خيراً! من الجيّد أن نصادف من يقدّر شغلنا.

- نعم، إنّه لأمرٌ مبهجٌ. وأنت، هل قابلتَ عازف الكمان؟

- نعم، إنّ له آلة كمانٍ صَنْعَةَ فوييوم، يعود تاريخها إلى ١٨٦٤! آلةٌ لا يرى المرءُ أمثالها كلّ يوم! ولفرط ما رجّتها الأسفارُ، صارت تحتاجُ ضبطاً. وقد سعد الشّابُّ بالنّتيجة، واطمأنَّ

على وجه الخصوص. غداً مساءً يعزف في حفل... اسمه كريستوف روبنس.

- آه، نعم، لقد سمعت باسمه... لا بل سمعته يعزف على الرّاديو منذ فترة غير بعيدة..، ها واحدٌ آخرُ يصعدُ نجمُه!

- لقد عزف مطلع شاكون على كمانه فوييوم، بعد أن دوزنتُه. كان عزفاً لا بأس به!

قام جاك مايار وقصد جهاز الهاي-فاي. وتناول سي ديه من الأثاث المليء بالسيديهات وأشرطة الكاسيت. أدخل السي ديه في الجهاز. انطلقت من مكبّرات صوتٍ مُعلَّقَةٍ بالسّقف موسيقى كمانٍ منفرد.

غمغم جاك وهو يعود إلى موضعه في الكنبة:

- شاكون يعزفها جيدون كريمر.

لصوت الموسيقى استفاقت مومو ورفعت رأسها. ثمّ وثبت على الكنبة حيث تمدّدت وأراحت رأسها على ركبتيَّ جاك. أخذ الصّانعُ يداعبُ كلبتَه من رأسها إلى ذيلها المتكوّر. والكلبة ترمش بعينيها مستسلمةً لحركات صاحبها اللّطيفة. وبعد لحظات من التروّي الموسيقيّ، لم يشُبها إلا نبضُ البندول الخافت، وبعض التأوّهات الحالمة من مومو، خرج جاك من لحظة حُلم، واستأنف بصوتٍ مستكين:

- قبل أن يغادر، جرّبَ كمانين من الكمانات التي صنعتها منذ

وقت ليس ببعيدٍ، ثمّ جرّب كماني الفوييّوم؛ عزف عليها جميعاً مقطوعة شاكون.

أخبر الصّانعُ صاحبَته بالاهتمام الذي أبداه الموسيقيّ تجاه كمانه الذي ليس للبيع.

ارتسمت على وجه جاك مايار ابتسامةُ رضاً. وانتهت معزوفة شاكون.

- أنا سعيدةٌ لأنّ كمانك الفوييوم قد نال مرّةً أخرى إعجاب موسيقيٍّ محترفٍ من المستوى الرّفيع! هل تريد المزيد من الشّاي؟

انطلق مطلعُ البرتيتا رقم 3. BWV, 1006.

- نعم، سأتناول قليلاً مع ما تبقّى من مادلين. لا تتحرّكي يا هيلين، سأضع في الإبريق ماءً ساخناً. عذراً يا مومو. سأنهض...

نزلت الكلبة عن الكنبة، وتمدّدت على الأرضية الخشبيّة. وغاصت هيلين للحظةٍ في جريدتها.

ولمّا عاد جاك بالإبريق مليئاً بالماء السّاخن، قالت:

- أتمنّى أن أحضر يوماً عزف ميدوري يامازاكي... إنّ الثناء ينهال عليها من كلّ جانب!

٤

كان جاك وهيلين قد التقيا في ميركور، وهي بلدة صغيرة في إقليم فُوج، عاصمةِ صناعةِ الكمنجاتِ الفرنسية. وكانا صغيرين، أحدهما في السادسة والعشرين من عمره، والآخر في الحادية والعشرين. وكانا قد أتيا إلى ميركور قبل لقائهما بثلاث سنواتٍ.

كان جاك، بصفته مفترسَ كُتبٍ، قد قضى، بعد البكالوريا، عامين في جامعة السّوربون، يتابع فيها دراسات أدبيّة. لكنّه لم يفلح. كان يرى أنّ الطّريقة العالِمة في مقاربة الأدب، لفرط ما تتعلّق بالمؤلّفِ تضيعُ الجوهريَّ: الحقل الشّاسع لصدى الكلمات التي تشكّل الواقع الخام والملموس للأثر الأدبيّ. فكان أن استعاد حلمَ طفولته، حلم أن يصير صانع كمنجات. مذ بلغ المراهقة، انغمس في الموسيقى، كما في الكتب، في الأصوات كما في الكلمات. وإذ لم يكن محيطُه يسمح له بأن يتعلَّم العزفَ على الكمان أو الفيولا، فقد تحوّل إلى صناعة الآلات الوترية. وكانت تلك أفضل الطّرق للبقاء ضمن لعبة التركيبات اللا نهائية للأصوات الموسيقية، وفي العالم

الواسع من المشاعر الغزيرة والعميقة التي تنبثق منها. قرّر الذّهاب إلى ميركور، فأخبر والدَه، فتفهّمَ والدُه قرارَه، وقال له إنّ أفضل خيارٍ للمرء هو أن يسلك الطّريقَ التي تفرضُ نفسَها، أن يُصغي إلى الصّوت الذي يرتفع من أغوار طاقاتها الحيّة.

- وإلّا، فإنّ ظِلّك لن يتبعك. سيُفصلُ بينكما. (وأضاف وهو يطلق تنهيدةً طويلةً) ثمّ إنّ المرء لا يعيش إلّا مرّةً واحدة.

أمّا هيلين فقد أتت إلى ميركور وهي ابنةُ ستّة عشر. كانت قد رافقت والديها، وكلاهما عازف ألتو محترف، إلى ليون. وفي أثناء زيارةٍ من زيارتهما إلى البلدة الصغيرة الواقعة في إقليم فوج، لإصلاح آلتيهما، عرضا على ابنتهما مرافقتَهما. وتلك هي الرحلة التي تقرّر فيها مستقبل الصبيّة. لقد وقعت هيلين في غرام حرفة صناعة أقواس العزف، حين دخلت إلى مشغل معلّمٍ في الحرفة. مجرّد عصاً مصنوعة من خشب البرازيل بيرنامبوكو، وقد تحوّلت إلى شيءٍ جميلٍ، حتّى بدا لها انحناؤها -وهي التي كانت على اتّصال دائم بأقواس والديها- لأوّل مرّةٍ، مغلّفاً بجمالٍ ملغّز يوحي بصورة مَركبةٍ فضائيّة تُبحر فوق لُجج الغيوم الفضيّة. وكان أبواها قد قالا لها إنّ رنّة آلاتهما تختلف اختلافاً بيّناً بحسب اختلاف الرّيشة التي يعزفان بها، والتي يعتبرانها امتداداً طبيعياً لذراعِهما اليمنى. فاتّخذ كلّ شيءٍ عند الصبيّة معنى جديداً. فكان أن تركت هيلين ميركور وهي تقسم بأنّها ستعود إليها لتتعلّم صنعة أقواس العزف، على يد معلّمٍ. وعادت بعد سنتين بنفس العزم الذي لم يفقد ذرّةً من حماسته أو قوّته اللتين ميّزتاه زمنَ يفاعة الصبيّة.

كلاهما بدأ تعليمه على يد معلّمٍ قدير. وكلّ أيّامهما كانت تتشابه، إذ تمضي مرهِقةً كأنّما ألقيَ بهما في نفس القالب. كلاهما كان يعيش، على حدةٍ، حياةَ راهبٍ، يوماً في إثر يومٍ، لباسُه مئزر أخضرُ، أو أزرق، أو أسود، معتكفاً في مشغله المعتم، لا يتحدّث إلّا قليلاً، ويتأمّلُ كثيراً، محفّزاً أسماعَه بالجملة، متفحّصاً حركات معلّمه وهو يعالج الأدوات، غيرَ عابئٍ إلّا بآلته العاكفِ عليها فوق المنضدة، تحت ضوء مصباحٍ برتقاليٍّ. فإن حلّ اللّيل، لم يخلد للنّوم، في غرفته المتواضعة التي فيها من المساحة ما بالكاد يكفي سريراً ومنضدةً يتّخذها في الآن نفسه مائدةً، إلّا وقد استذكرَ أساسياتِ ما تعلَّمَه، وأحياناً يدوّنها في دفتر ملاحظاتٍ ورسوم. كذلك كانت حياة الحرفيّ التي يعيشها كلّ منهما في المدينة ذات السّبعة آلاف نسمة؛ حياتان تتأسّسان من جديدٍ، ويا للعجب، تسيران على نحوٍ متماثل تماثلَ قطرتَي ماءٍ، متشابهتان في بساطتهما، وانتظامهما، وتقشّفهما، وكدّهما، ورتابة أيامهما المكرورة؛ وكلّ ذلك من غير أن تسنح لهما الفرصة بأن يلتقيا، أو يتبادلا نظرةً، أو ابتسامةً، أو كلمة. ثمّ ذات يومٍ، بعد ثلاث سنواتٍ من مقدمهما إلى ميركور سنة ١٩٥٠، التقيا، كأنّما قادتهما قوّةٌ أعلى، أرادت أن تقرّب بين قلبين متشابهين.

لقد بعث السيّدُ لابرت، معلّمُ صناعة الكمان، بمتعلِّمِه إلى السيّد بازان، معلّمِ صناعة الأقواس. وكان المعلّمان يتعاونان أحياناً لإنجاز طلبات بعض الزّبائن. وكان مشغل معلّم الأقواس يبتعد

بنحو اثنتا عشرة دقيقةً، مشياً على الأقدام، من مشغل زميله وصديقه. وكانت تلك أوّل مرّة يقصد فيها جاك إلى مشغل الأقواس. فلمّا دخل المشغلَ، وقع بصرُه من فوره على المعلّم الخمسينيّ، ذي الرأس الذي غزاه الشّيب وعلَته صلعةٌ، وعلى عينيه نظارةٌ سميكةُ الزّجاج. سلّم إليه مظروفاً كبيراً من عند معلّمه. ثمّ أراد جاك أن ينصرف من فوره، مودّعاً المعلّم. لكن لمّا همّ بالخروج، فاستدار تلقائياً، وقع بصرُه على شابةٍ ترتدي نظّارةً، عاكفةً على منضدتها. كانت إلى جانب متعلّمٍ يافعٍ يلحو عصا برتقالٍ بمَسْجَحةٍ ضئيلة، فتنهمرُ على المنضدة رقائقُ نشاراتٍ كأنّها خُصلاتُ ملاك. وكان، لسذاجته، يظنّ حتّى تلك اللّحظة أنّ كلّ صنّاع الآلات والأقواس رجالٌ. وكانت الصبيّةُ تحاول أن تثنيَ برفقٍ عصاً، بتسخينها على نارٍ، لتمنحها حدبة قوسٍ جميلةً. شعرت بنفسها مراقَبَةً. رفعت رأسَها، فأبصرت الشّابَّ الذي ظلّ مسمّراً هناك مع أنّه قد أتمّ البَعثةَ، وأدّى الرّسالةَ. ابتسمت له جزءاً من ثانيةٍ، ثمّ عادت تنكبُّ على شغلها. وبالكاد وجد جاك ما يكفي في الوقت ليردَّ لها الابتسامة بمثلها. صمتٌ عميقٌ كان يخيّم على المكان. لا صوتَ يتردّد غير ضجيج المسحجة والعصا التي تُفرَك، بين الفينة والأخرى، على المنضدة، لكي تحصل على تقوّسها المثاليّ.

استدار جاك، وانصرف على أطراف أصابع قدميه. وفي مساء اليوم المذكور، وقبل أن يخمد نور مصباحه، خربش بضعة أسطُرٍ على دفتره الأخضر الذي يحمل الرّقم ١٨، والذي يتّخذه أيضاً

لكتابة يومياته؛ أسطر دوّن بها لقاءه غير المتوقّع مع صانعة الأقواس الغامضة التي ما تزال في مهد تعلّمها.

انطفأ المصباحُ، ولم يتجلَّ لجاك، في الغرفة، إله الأحلام، مورفيوس. ظلّ المتعلِّم مستيقظاً حتّى ساعةٍ متأخّرةٍ من اللّيل.

٥

مرّت أيّامٌ، ثمّ أسابيع، فخلَفَتها أسابيعُ. وسرت الحياة مسراها المعتادَ، من غير أن يجدّ جديدٌ فتضطرب له حماسة المتعلّمَين للعمل، وهدوؤهما، ورغبتهما المؤرقة في ارتقاء درجاتِ الإتقان لصنعتهما. حتّى أنّ ذكرى لقائهما العابر ما لبثت أن تبدّدت، عند هذا وتلك، إذ غطّاها ستارُ اللّحظات اليومية التي يراكمانها على مرّ الأيّام. لا جاك كان يفكّر في هيلين، ولا هيلين كانت تفكّر في جاك، وإن ظلّ أثر الابتسامة التي تبادلاها محفوظاً كأحفورةٍ في أعماق الآبار المظلمة لذاكرتهما.

على أنّهما التقيا مرّةً ثانيةً، ذاتِ يومٍ من الأيام القليلة المنفلتة من القالب الضيّق لنشاطهما المهنيّ. حدث ذلك ظهيرة يومٍ مشمس نهاية شهر أغسطس. وكان كلّ منهما عائداً من عطلته القصيرة. عطلة قضاها جاك في النّورماندي، في المنزل الذي ورثه والده، وكان أبوه وحيدَ والديه. أمّا متعلّمة صناعة الأقواس، فقد قصدت إلى البادية في نواحي ديجون، تنهل من لذائذ راحة الجسد وهدوء البال،

في منزل والديها الثّانويّ. فلمّا نزلا من القطار، سار كلّ منهما حاملاً حقيبته على ظهره، صوب بهو المحطّة. تلاقت نظرتاهما. ولمّا كان عدد الرّكابِ قليلاً، فقد سهل على كلّ منهما أن يتعرّف على الآخر.

- مرحباً!

- مرحباً، هل تتذكّرينني؟

- نعم، أتذكّرِ أنّك زرتنا في المشغل مرّةً، وإن كنتُ لا أذكر متى!

- نعم! يا لها من مفاجأة! كنّا إذن في نفس القطار.

- يبدو ذلك. هل أنت عائد من سفر؟

- نعم. وأنت أيضاً؟

- نعم.

اتّفقا على الجلوس في مقهى. التمسا مكاناً هادئاً. وبعد بضع دقائق من المشي، استقرا تحت مظلة على شرفة حانة صغيرة.

قالت صانعة الأقواس وهي تمدّ يدها لصانع الكمنجات مصافِحةً:

- اسمي هيلين، هيلين بيكر.

- جاك مايار. أنت في ميركور منذ...؟

- ثلاث سنواتٍ ونصف.. أنا من هيرو لكنّ أسرتي تسكن في ليون.

- أنا باريسيّ. أقصد... الأمر معقّد بعض الشّيء، لكنّني مُذ وعيتُ وأنا أقطن باريس... أنا أيضاً في ميركور منذ ثلاث سنواتٍ ونيف...

أتى النّادل يسألهما طلباتهما، فطلب كلّ منهما قهوةً.

- حين رأيتكِ في مشغل المعلّم بازان، دهشتُ، إذ كنت أظنُّ مخطئاً أنّ النّساء لا يشتغلن هذه الحرفة.

- لست مخطئاً. إنّ هذه الحرفة تكاد تكون قصراً على الرّجال. حتّى أنّ المعلّم بازان تردّد كثيراً في القبول بي...

كان الحديث شديد الحماس... بدءَا أوّل ما بدءَا بذكر مباهج الحرفة ومصاعبها. وأفصحت هيلين لجاك عن السّعادة التي غمرتها حين تمكّنت من أن تُقيمَ حدبةً مثاليةً على عصا بسيطة من خشب البرازيل، عصاً أيقظوها من نومٍ ظلّت خلاله تجفّ عشرات السّنين.

- هل خشب البرازيل هو الخشب المعروف الذي أدخله ذاك المعلّم الفرنسيّ الشّهير خلال القرن الثامن عشر؟ أقصد ... فرانسوا...؟

- فرنسوا كزافييه تورت.

- آه، بلى، هو.

- إنّه خشب لا ينبت إلّا في البرازيل... وأرى ما صنعه مذهلاً، أقصد أن يفكّر في استقطاب شجرة بعيدة جداً، بغاية تحسين فنّه. ألا ترى ذلك؟

- بلى، بلى، رائع... إنّ الشّغف هو ما أوصله بعيداً، على الصّعيدين التقنيّ والجغرافيّ...

كذلك حدّثها جاك عمّا يحمله من إعجابٍ وتقديرٍ لمعلّمي صناعة الكمنجات، منذ المعلّم أماتي، أولئك الذين وضعوا الأسس الثابتة لاختيارات الخشب المناسب لصناعة الآلات الوترية: خشب التّنوب للصّدر، وخشب القيقب للمقبض والجنب والفرس، وخشب الأبنوس للرّقبة والمشط... وشأنَه شأن هيلين كان يشتغل على خشبٍ أتى من فترةِ تجفيفٍ طبيعيّة طويلة جداً؛ وكان مثلها مفتوناً بجمال انحناء أقواس العزف، والتحديب الذي ينبغي إحداثه على ظهر الآلة وصدرها، كي تُمنح قدرةً خارقةً على الاهتزاز. ينبغي بلوغ درجةٍ مثالية من إتقانِ معالجةِ كلّ حركة من حركات الآلة، إلى أن تغدو جزءاً لا يُجتَزأ من اليدين. وذلك يتطلّب مجهوداً متواصلاً، وصبراً لا ينفد. لكنّه لم يكن يستسلم البتّة. بل بالعكس، كان يضاعف جهودَه موقناً بأنّ فخامة الصّوت وجلاله ينتظرانه عن نهاية الطّريق الطّويلة.

كان يتبادلان النّظر فلا يزداد كلّ منهما، في دواخله، إلّا افتتاناً بتلك الصّدفة، أو القدر، التي قادت كلّاً منهما إلى أن يأتي إلى هذه المدينة الواقعة في إقليم فوج، لكي يتعلّم أسرار صناعة الأصوات الموسيقيّة.

خلُص جاك بنبرةٍ حمّلها معاني الصراحة والألم: - لست إلّا في بداية مغامرتي.

أجابته هيلين: - حتى أنا.

وكان الوقت قد انسرب تحت المظلّة في شرفة الحانة من غير أن ينتبه الحرفيّان الشّابّان إلى جريانه السّريع الصّامت. وكانت الشّمس قد آذنت بالغروب. فكان لزاماً على كلّ منهما التّعجيل بموافاة مشغله. فتصافحا وانصرفا متواعدين باللّقاء. واختفت الهيئتان في ظلام الأزقّة المتنامي.

٦

كذلك انصرمت سنتان أخريان، صرفاها في رتابة الملاحظات التي ما تنفكّ تعادُ على بدءٍ، وفي الهناءة المتّصلة للتأمّل الذي يستأنفُ أبَداً، وفي عشق الحركات التي لا بدّ من تكرارها بلا هوادةٍ، يوماً بعد يومٍ. على أنّ شيئاً واحداً جدَّ فغيّر نظام الحياة التي عاشاها من قبل، طيلة تلك السّنوات الثلاث التي صرفها كلّ منهما في التعلّم، في ورشة لا تكاد تبعد عن ورشة الآخر إلّا قليلاً؛ لقد جدّ اللّقاءُ الذي اتّخذاه موعداً، سرعان ما استقرّ وترسّخ بُعَيد لقائهما الأوّل في المحطّة. فكانا في ابتداء التواعد يلتقيان مرّة كلّ أسبوعين أو ثلاثة، ثم سرعان ما انتهيا إلى أن يتّخذا لقاءً ثابتاً مرّةً في الأسبوع. وكثيراً ما كانا يستريحان استراحتهما اليومية في الوقت نفسه، لكي يكسرا جَوعَتَهُما معاً. وأحياناً، في المساء، بعد انقضاء أشغالهما، كانا يتعشيّان، رأساً لرأسٍ، في مطعمٍ صغير معتمٍ، يتأخرّان فيه حتّى وقتٍ متأخرٍ من اللّيل. الكلمات تنبثق من قلبِ أحدهما لتخترق قلبَ الآخر. ثمّ يتوادعان، متفكّرين في الغد الحافل بالعمل،

كغيره من الأيّام، فيعود كلّ منهما إلى مأواه، ليريح تعبَ عينيه ويجدّد طاقة عضلات ذراعيه المشدودة، أثناء نومه العميقِ، على قصَرِه؛ النوم الذي تعبره بين الفينة والأخرى أحلام المستقبل. كان يشعران بنفسيهما متآزرين، حيث يصبُّ كلّ منهما نفسَه في الآخر، ويتلاقيان في تصوّرهما عن تحقّق الذّات الذي يرتبط ارتباطاً حميماً بإتقان صَنعتِهما الذي يواصلانه بصبرٍ؛ فكان عالَم كلّ منهما يفيد من حضور الآخر وإسهامه، فيتقوّى ويغتني ويتّسع.

وذات يوم أفلتت من فم هيلين كلمات خارجة من أعماق قلبها:

- ربّما ذات يومٍ يعزف عازفٌ على كمان من كماناتك، بقوسٍ من أقواسي!

وتضرّج وجهها بالحمرة.

أجابها جاك بنبرةٍ حالمة وهي ينظر إلى عينيها: - لمَ لا؟

وكانت هيلين تكتب إلى والدَيها بانتظامٍ. وكلّما وصلتهما منها رسالةٌ ردّا عليها. كانا يزوّدانها بأخبارهما، وأخبار العائلة، والمعارف. هكذا تعرف هيلين أنّ رفيقةَ دراستها فلانةٌ قد أصيبت بكسر، وعلّانةٌ خُطبت. فأدركت أنّ السّنون تمرّ، وأنّها هي أيضاً تشارف سناً تلوح فيه للبناتِ صُور الزّواج. فكانت أحياناً، في سريرها، قبل أن يستولي عليها النّومُ، تتصوّر، في شيءٍ من القلق الصّامت والملحّ أحياناً، مستقبلها الذي لم يتّخذ بعد أيّ هيأةٍ واضحة، والذي يمكن أن يقيم على تلك الحالِ مدّةً أخرى من الزّمن، غارقاً في انعدام

يقينٍ مقلق. بل حتّى في عزّ النّهار، كان يعرض لها أن تُفاجأَ بنفسها غارقة في الخيالاتِ، ترى نفسَها فيها في وسطٍ أسريّ وعمليّ يوفّر لها السّعادة والرّضا. وفي دواخلها، ما كانت تستطيع أن تمنع نفسها من تخيّل حياة جاك تتداخل مع حياتها المتخيّلة تلك...

ثمّ إنّ جاك، ذات يومٍ ربيعيّ ممطرٍ، عرض عليها شيئاً غير متوقّع: أن يتغدّيا يوم الأحد القابلِ في مطعمٍ حقيقيّ. وكانا حتّى لحظتها تلك يكتفيان باللّقاء في حانةٍ بالمدينة ليست بأفضل من مطعمٍ مدرسيّ. لقد حرص جاك، في ذلك الأحد المعلوم، على أن يتمّ الموعدُ ضمن إطارٍ مختلف.

قال: - دعيني أتكفّل بكلّ شيء!

عرّج جاك على ورشة المعلّم بازان حيث تأوي هيلين، ليصطحبها إلى الغذاء، وكان يرتدي سترةً، ويضع ربطة عنق. وكانت الصبيّة قد تزيّنت بمكياجٍ خفيفٍ، وارتدت فستاناً أخضرَ فاتحاً. اندهش الشّابُّ من جمالِ هيلين المتحفّظِ، الجمال الذي لم يتوقّعه قطّ تحت مأزر الشّغل. استقلّا القطار إلى إبينال. وجلسا في مطعمٍ قرب المحطّة يسمّى **الدغل اللّاهب**. فلمّا دوّنَ النّادل طلباتهما، ران عليهما الصّمتُ برهةً بدا فيها كلّ منهما يحسُّ توقُّع الآخر، يخمّن الكلمات التي تتهيّأُ في ذهنه، لتنتظمَ، فتُنطَقَ.

أخيراً نطقت هيلين: - هذا يومٌ مميّز...

فكّر جاك في أنّها تريد أن تستلّ من فمه كلماتٍ عذبةً لأذنيها.

فغالب نفسه أشدّ المغالبة لكي يمتنع عن نطق تلك الكلمات التي يريد قلبه أن يبوح بها، وترفضُ إرادتُه أن تجاريه في بوحه...

- أجل، هو يومٌ مميّز... لقد اتّخذتُ قراراً مهمّاً.

همست هيلين وقد نفد صبرها: - آه؟

- نعم... لا أدري كيف أقول... لقد قرّرتُ أن أترك ميركور.

صُدمت هيلين، فعجزت عن نطق كلمة.

- سوف.. سوف.. أكمل تكويني في كريمونة. لقد أوصى بي المعلّم لابرت عند معلّم كبير هناك، فقبل تعليمي. ما زلت أحتاج تعلّم أمور كثيرة، خاصّة فيما يتعلّق بالتّرميم.

قالت هيلين: - كنت أظنّ...

كبحتها موجةٌ من انفعال، فتوقّفت لحظةً، ثمّ استأنفت:

- كنت أظنُّ أنّنا سنواصل حياتنا على هذا النّحو مدّة...

جاهدت الصبيّة كيلا تنهار. اضطرب جاك للتّأثّر الظّاهر على هيلين، التأثّر الذي لم يكن يتوقّعه بهذه الحدّة، فجاهد لكي يحافظ على هدوئه، ويبيّن لها دواعي قراره.

- أنا أيضاً وددتُ لو يستمرّ الوضع كما هو الآن... لكن مستحيل. ينبغي أن أخبرك بشيء مهمّ يا هيلين.

وكانت صانعة الأقواس الشّابة قد خفضت عينيها لتخفي دموعها، فرفعت رأسها وهي تمسح على خدّيها بيُمناها.

- لم يسبق قطّ أن طرقتُ هذا الموضوع معك.. لكنّ عندي مشروعاً بدأته منذ زمنٍ بعيد. ليست السّنوات الخمس التي قضيتُها في ميركور سوى المرحلة الأولى من المشروع... سامحيني، كان يُفترض أن أحدّثك في الموضوع منذ مدّة، لكنّني لم أستطع. قضيت في البداية فترة من التردّد، كنت أتساءل فيها عمّا إذا كنت حقاً منذوراً لهذه الصّنعة، وهل تجدي المثابرة نفعاً... ثمّ لمّا تبدّدت الشّكوك صرت أحلمُ بمستقبلي صانعاً للكمنجات، بجانب مستقبلك... مثلك، ربّما... لكنّني لا أستطيع أن أهجُر المشروع الذي أحمله في نفسي منذ طفولتي تقريباً... لقد دعوتك إلى هنا لكي أفصح لك عن هذا المشروع... سيستغرق منّي الأمر وقتاً.

وجهُ الصبيّة الآخذ في الارتخاء والارتياح بدا يفصح عن استعداد قلبها تلقي التّفسير الذي يلمّح إليه الشّابُّ الذي لم يعد قانعاً بما كسبَه من معارف في ميركور.

تساءل جاك: - من أين البدء إذن؟

أتاهما النّادل بالمقبّلات التي طلباها.

- شهيّة طيّبة يا هيلين.

- شكراً. شهيّة طيّبة يا جاك.

مكتبة
t.me/soramnqraa

- شكراً... هيلين، كثيراً ما وددتُ لو أسألك عمّا إذا كانت قد راودتكِ الرّغبة في أن تسأليني عن سرّ اسميَ الفرنسيّ الذي

لا يتوافق مع شكلي الأسيويّ...

- في البداية، نعم. لكنّني قلت لنفسي لا بدّ أنّك من عائلةٍ ذات أصول فيتناميّة أو صينيّة... فلمّا وُلدتَ في فرنسا، أطلقوا عليك اسماً فرنسياً... ولم أرغب في الدّفع بالسّؤال أبعدَ. في جميع الأحوال، لم أنزعج قطّ من هذا التّباين! فالشّكل، والاسمُ، والأصولُ، أمورٌ لم أحفَل بها يوماً... ما يهمّ هو ما يصنعُه المرء بنفسه، بواسطة جهده وإرادته... أليس كذلك؟

- اسمي جاك مايار، لكنّي أحمل أيضاً، أو كنت أحمل اسم ري ميزوساوا. كنت يابانياً... تيتّمتُ في طوكيو، فتبنّاني السيّد والسيّدة مايار وربّياني كما لو كنت ولدَهُما...

كذلك بدأ جاك سرد قصّته، وما كان من أمر حياته طيلة عشرين سنةً ماضيّة، حياة قضى خلالها، الجزء الأكبر من ظهيرة أحد الأيام، مختبئاً في خزانةٍ أوروبيّة في زاوية قاعة الاجتماعات بمبنى ثقافة يقع في مكانٍ ما من مدينة طوكيو الشّاسعة. وإذ كان يرغبُ في أن يفصِّلَ تفصيلاً أميناً في المشهد الذي كان شاهداً عليه من فتحة مفتاح الخزانة، فقد كان يقطع أكلَه مدّةً طويلة. أمّا هيلين، فقد كانت تأكل ببطءٍ شديدٍ، وقد أسرَتها حكايةُ صديقها صانع الكمنجات. استمرّ الغداء دهراً. حتّى ألفيا نفسيهما وحيدين في مطعم **الدُغل الحارق**، وقد خلا من زبائنه، لمّا أنهى جاك حكاية مسار حياته. وما كانا بعد قد طلبا تحليةً.

قالت هيلين: - لم أعد جائعة.

- ولا أنا. يجدر بنا ربّما أن ننصرف، إنّ ساعة القطار وشيكة.

حاسبَ جاك النّادل، وشكره، واعتذر له عن تأخّرهما في تناول الطّعام. ثمّ غادرا المطعم...

وشوشت هيلين: - أوه إنّ السّماء تمطر...

- **تمطر السّماء كما يدمع قلبي**...

- لقد قلبت ترتيب البيت[1]...

- أجل، أعرف. لكنّ البيت خطر لي هكذا تلقائياً...

ولمّا بلغا ميركور، تمشّيا الهوينا صوب مشغل المعلّم بازان.

- متى تنطلق إلى كريمونة؟

- خلال أسبوعين. ما زال أمامنا الوقت لنتوادع.

- وستبقى هناك طويلاً؟

- لا أدري.

- سنتكاتب؟

- طبعاً. سنتكاتب. سأكتب إليك بانتظامٍ.

وعلى الرّغم من إبطائهما الخطو أقصى إبطاء، رغبةً في إطالةِ السّير، وتأخيرِ لحظةِ قول **إلى اللّقاء وليلة طيّبة**، إلّا أنّ المطاف انتهى

---

(١) تقصد بيت بول فيرلين «يدمع قلبي كما تمطر السّماء».

بهما عند المعلّم بازان، بسرعةٍ، ومن غير أن يجد أحدهُما الوقت لاستبطاء الوقت، واستطالة لحظة وجودهما معاً. ولم يكن يضيئهما غير مصباح شارعٍ واهن. شكرت هيلين جاك على الدّعوة إلى المطعم، ثمّ بخاصّةً على سرد حياته الذي أثّر فيها كلّ تأثير. وبالمثل شكرها جاك على رفقتها الطيّبة، وحسن إصغائها إليه، وتفّهمه. ثمّ أضاف معبّراً عن امتنانه لصداقتها العذبة، اللّطيفة، الحميمية، المسلّية، والمؤنسة. تناول يدها، فطبع عليها قبلةً من شفتيه. تناظرا. خالت هيلين أنّها رأت، عبر نظّارات جاك التي تعكس الجوّ الباهت المحيطَ بهما، عينيه يلمعان ببريق دمعٍ رهيف. تقارب الوجهان؛ فقبّلا بعضهما بعضاً، أوّل قبلة. وكانَ العناق طويلاً وحارّاً. ثمّ تباعدا. فظلّت هيلين واقفةً، ساكنةً، أمام مشغلها، حتّى اختفى شبح صديقها في ظلمات زقاقٍ مجاورٍ.

٧

ذات مساءٍ شتوي، حين عودتها إلى المنزل، قالت هيلين، مضطربةً كلّ الاضطراب، لجاك الجالس على الأريكة في غرفة المعيشة، منهمكاً في القراءة، وعند قدميه مومو.

- أُنظُر يا جاك، ماذا وجدت. تذكُر، منذ سنتين أو ثلاث، كنت قد أعطيتُك نسخةً من صحيفة ليبيراسيون لتقرأ فيها مقالاً قصيراً عن ميدوري يامازاكي، عازفة الكمان اليابانيّة... لقد أيقظَت فضولي إذ ذكرت التأثير الحاسم الذي مارسه عليها جدُّها في مسارها الموسيقي...

- نعم، أذكر. كان ذلك حين فازت بالجائزة الأولى في... لا أدري أيّ مسابقة...

- اقرأ هذا، إنّه الحوار الذي أجرَته مؤخّراً مع مجلّة **موسيقى وكلمات**.. تقول إنّ جدّها كان ضابطاً في فرقة المشاة، لكنّ ذلك لم يمنعها من أن تكون مولعةً بالموسيقى.. تقول: «أنا مدينةٌ بما أنا عليه، لجدّي.. بقدر ديني لمعلّمتي مادام سوزوكي..».

كان جاك غائصاً في قراءة كتاب ياباني من القطع الصّغير، رفع رأسَه وتناول المجلّة.

- «**قوامُ وجودي، ما تعلّمتُه من جدّي**».

بعد أن قرأ العنوان بصوتٍ عالٍ، جاب بعينيه المقال كلّه صامتاً.

قال: - إه، نعم، عازفة كمان يابانيّة في السادسة عشر من عمرها، تتحدّث بهذه الكلمات عن جدّها الجنديّ السّابق... في الواقع، هذه قرائن مريبة... يستحقّ الأمر ربّما حفراً أكبر...

- هذا ما أظنّه أيضاً. ماذا لو كتبتَ لها...

- لكن، كيف؟

- ترسل رسالةً إلى مدير أعمالها. الطّبيعيّ أنّه يوصل إلى الفنّانة كلّ ما يصله.

لم يندّ عن جاك أيّ ردّ فعلٍ تجاه ما قالت هيلين؛ ظلّ غارقاً في هاويةٍ من الذّكريات المؤلمة، والفِكَر الحزينة. حمل كتابه الذي كان قد وضعه على صفحاته مفتوحةً. كان كتاباً مليئاً بملاحظاتٍ غزيرة توحي بصورة شعورَ مختلفة الألوان تنتصب على رأس شخصيّة من شخصيات الرّسوم المتحرّكة، كتابٌ محميّ بعنايةٍ بغلافٍ من الورق بنيّ تضعضعَ لفرط ما عالجته اليدُ باللّمس، وقد كُتب عليه بقلم لبد أسود رمزان وثمانية حروف من الهيراغانا[1].

---

(١) الأبجدية اليابانيّة. (المؤلف).

٨

لمّا كان رِي قد قدِم إلى باريس في الحادية عشرة من عمره، وانخرط مذّاك في النّظام التعليميّ الفرنسيّ، فقدْ فقدَ عادة الحديث باليابانيّة. حتّى أنّه فقد، لفترةٍ من الزّمن، القدرة على القراءة والكتابة بلغته الأمّ. إذ كان الجهد المنصبُّ على الطّفل المنقول حديثاً إلى سياقٍ فرنسيّ، هو أن يتعلّم لغة البلد المستقبِل. ووفاءً لذكرى صديقه يو ميزوساوا أحاط فيليب ابنَه بالتّبني بحنانِ الحبِّ وعطفِ الرّعاية. فحرص على أن يترعرع الولد الذي حُرم أباه بأفظعِ الطّرق، في أسلَمِ جوٍّ ممكنٍ، مع علمِه بأنّ الجرح الذي أصيب به الصبيُّ سيظلّ مفتوحاً ردحاً من الزّمن، إن لم نقل إنّه لن يطيبَ أبداً. كذلك زوجتُه، لإيقانها بعقمِها، فقد وجدت عاطفتُها الأموميّة في الطّفل الياباني كفايَتها.

لقد أراد فيليب وإيزابيل مايار أن يعيش ابنهما بالتّبني نهايةَ طفولته، ومراهقَتَه، بأكبرِ قدرٍ ممكن من التّناغم مع محيطه، أو على أيّ حالٍ، بأقلّ ما يمكن من الرّضوض والاضطرابات النّفسيّة،

فأطلقا على الصبيّ الذي لم يَقبل البتّة أن يُفرَّقَ بينَه وبين كمانه، اسم جاك، تيمّناً باسم أعظم عازف كمانٍ فرنسيّ في زمنهما، جاك تيبو.

- لديك الآن، بالإضافة إلى اسم ري الجميل الذي منحك إيّاه أبوك، الاسمِ منحك إيّاه الأوتوسان، اسمٌ فرنسيّ هو جاك. اسمك الجديد لا يمحو اسمك الياباني الذي يعني «أدب، لباقة»، إن كنتُ ما أزال أذكر ما قاله لي أوتوسان فيما مضى من الزّمن. أليس كذلك؟ إنّ الاسمين معاً يتساندان، ويقوّي بعضهما بعضاً. ستتضاعف قوّتك إذن! وهنا في فرنسا، بلدك الجديد، أَحلُّ أنا محلّ أوتوسان الذي أحمل عنه ذكرى جميلة. وسأحاول أن أكون في مستواه...

كذلك حدَّث فيليب الصبيَّ رِي، ذات يوم، بالفرنسيّة، مع الحرص على أن يقحم كلماتٍ يابانيّة هنا وهناك، ضماناً لفهم الصبيّ. وفي ستّة أشهر بالمدرسة، استطاع ري أن يبلغ مستوى مطمئناً في الفهم الشّفهيّ.

ومذّاك استطاع الصبيّ، متشجّعاً بحبّ والديه الفرنسيّين وحمايتهما، أن يروّض، بدرجةٍ ما، الخوفَ المستورَ والمكبوتَ والمُنكَرَ الذي كان يعتمل في قرارة قلبه، وأحرز تقدّماً مذهلاً في اللّغة الفرنسية، حتّى استطاع في بضع سنين، أن يصير من أنجب التلاميذ. وإذّاك بدأت تُعاوده، شيئاً فشيئاً، الرّغبة في أن يحفظَ لغة أبيه الرّاحل. فأعاد فتح كتاب غنزابورو يوشينو **قُل لي كيف ستعيش**، الكتاب الذي كان قد قرأه بتوصيةٍ من أبيه. فلمّا شرع في

قراءته استعادت ذاكرته، كأنّما في كابوسٍ، تفاصيلَ اليّوم المفجع الذي خسر فيه أباه للأبد. فظلّ يقرأ كتاب يوشينو ويعاودُه، بلا ملل أو كلل. وينسخ منه في كرّاسٍ أخضر ما راقَه من كلماتٍ، أو ما طاب لأذنه من جُمل، وأحياناً صفحاتٍ بأكملها ممّا يودّ أن يتذكّره. ولمّا لم يكن لجاك من يحادثه باليابانيّة، فقد دأب على الكتابة بها. فكان الكرّاس الأخضر، في المقام الأوّل، فردوسَه السريّ الذي منه تصعد ذكرياتُ ما خلّفَه في طوكيو، وما حفظه في مكانٍ ما قصيٍّ ومظلمٍ من روحه الطّفوليّة. ولاحقاً فقط، حين أناف على الخامسة عشرةَ، وقد صارت كتابة اليومياتِ ممارسةً راسخة لديه، باعتبارها دواءً ضدّ هاجس الخوف، بدأ جاك الكتابة بالفرنسيّة أيضاً. فكان أن تعاقبت الكراريسُ الخضراء -سنةً في إثر سنةٍ يشتري لغرض كتابة اليوميات نفسَ الكرّاس المدرسيّ الأخضر-، وامتلأت صفحاتها، كُرّاساً كرّاساً، بالفرنسيّة، ينثر بين سطورها جملاً يابانيّةً وحروفاً من الهيراغانا، ورموزاً على هذا القدر من الصّعوبة أو ذاك.

٩

لذلك، حين قرّر جاك الكتابة إلى ميدوري يامازاكي، لم يجد مشقّةً في تحرير رسالته باليابانيّة. بالطّبع هو يكتب بالفرنسيّة على نحوٍ أسرع وأيسرَ، لكنّ التعبير باليابانيّة ليس عقبةً بالنّسبة إليه. وبالتّأكيد هو لا يكتب مثل يابانيّ عاش حياتَه كلّها في اليابان. فمعرفتُه الفعّالة بالرّموز اللّغوية اليابانيّة تظلّ محدودة. إذ لمّا كان قد قضى ستّةً من أسباعِ حياته في فرنسا، واتّخذَ لغةَ قومِها لغةً، فقد صار يستعمل لغةَ قومِه استعمالَ الغريبِ لها. لكن وإن كان التعبير باليابانيّة لم يعد أمراً طبيعياً بالنّسبة إليه، وصار يتطلّب منه جهداً خاصّاً، إلّا أنّه لا يكلّفُه شيئاً. وكان جاك يعلم أنّ عازفةَ الكمان قد أقامت في فرنسا سعياً إلى أن تصقل تكوينها في المعهد الموسيقي لباريس؛ وبالتّالي هي تفهم الفرنسيّة قطعاً. ومع ذلك اختار أن يكتب إليها باليابانيّة. ذاك أنّ ما يريد أن يُفصح لها عنه يتعلّقُ بالطّبقة اليابانيّة الأعمقِ ضمنَ وجوده، بالحدث الذي عاشه باليابانيّة منذ خمسةٍ وستّين عاماً، لكنّه تجمّد، أو تيبّس أو تحجّر مُذّاكَ، كأنّما اغتيلَ الزّمن، كأنّما تجلّط، فتوقّف إلى الأبد.

مساء خميسٍ، وضع جاك على باب المدخل ورقةً بيضاء كتب فيها: «**مغلقٌ استثناءً**». وفي اليوم التّالي، بدأ ري كتابة مسوّدة رسالته في كرّاسه الأخضر الذي يحمل الرّقم ٦٥. فحرّر ثلاثة أوراق دفعة واحدة. ثمّ أعاد قراءتها. فعنّ له أن يعدّل على بعض الجمل، وأن يستبدل بكلماتٍ كلمات أخرى بدَت له أصوبَ وأنسبَ، وأن يعيد كتابة فقرتين أو ثلاثاً بدت له ركيكةً. وفي صباح السّبت، استأنف العمل على مسوّدته، فما استقرّ في نفسه الرّضا على تمام مشروعه الرّسائلي إلّا وشمسُ الشّتاء قد آذنت بالغروب. طلبت منه هيلين أن يرتاح. فالوقتُ مناسبٌ لشرب فنجان من شاي **ماتشا**.

- وإذن، هل انتهيت؟

- نعم، كدت. قطعاً ليست رسالةً مكتوبةً بإتقان. ولن تخلو على الأرجح من أخطاء وركاكة؛ ولا تحتوي الكثير من الرّموز اليابانيّة لأنّي لم أعرف الكثير منها. والكثير من الكلمات كتبتُها بحروف الهيراغانا... بدءاً من اسم الملازم كوروكامي... لكن أظنّ أنّي قمت باللازم. سأتوقّف عند هذا الحدّ. وسوف أقرؤها غداً. فإن وجدتُها جيّدةً، نقلتها من التسويد إلى التبييض.

في تلك اللّيلة جفا النّومُ جاك. وتنبّهت هيلين لأرقه.

تداعَبا طويلاً تحت الغطاء، قبل أن يهويا معاً في النّوم الذي يوحّدهما، كلّ منهما لصق الآخر.

١٠

بعد أسبوعٍ من الترقّب، بدا له دهراً، توصّل ري برسالةٍ من عند ميدوري يامازاكي، رسالة اخترقَت سماكة الزّمن الجامد، كما لو أنّها أشعّةُ إكس.

من: ميدوري يامازاكي

إلى: 礼水澤/ **ري ميزوساوا/ جاك مايار.**

بتاريخ: ٢٨ فبراير ٢٠٠٣

سيّدي العزيز،

أشكرك غاية الشّكر، لقد هزّت رسالتُك الطّويلة كياني.

أجل، إنّ جدّي، من جهة أمّي، اسمُه كِنغو كوروكامي. وكان ملازماً في جيش المشاة. فهو إذن من كان الشّاهدَ على تلك الملابسات المأساوية التي عِشتها سنة ١٩٨٣. وقد رحل عنّا منذ سنة ١٩٩٣.

سأسعد حقاً بلقائك. لكنّني الآن منطلقةٌ في جولةٍ بالولايات المتّحدة وكندا، تستمرّ ثلاثة أسابيع. سوف أعاود الاتّصال بك حالَ عودتي. وعندئذ نرتّب معاً لإمكانات لقائنا.

شكراً كثيراً لأنّك راسلتني، لقد أثّرت فيّ رسالتُك غاية التأثير.

مودّتي،

ميدوري يامازاكي.

كانت الرّسالة مكتوبة بيابانيّة بسيطة وسلسلة، لم يجد ري مشقّة في فهمها. وقد كتبَت العازفةُ اسمَ جدّها بحروفِ الهيراغانا على غرار ما فعله صانع الكمنجات الفرنسيّ في رسالته. أكانت تلك علامةً على حرصها الكيِّس بأن تشارك الطّفل ري إدراكاته السّمعيّة؟ أم تراها قد وضعت نفسها في موضع الصّانع الشّيخ، فقدّرت ما قد يعانيه من صعوبةٍ في قراءة الاسم وهو الذي صودرت منه طفولتَه بعنفٍ، وعُلِّقت ممارسته للغته الأمّ؟ أحسّ ري بما يشبه حرقةً في المعدة، حرارةً حمضيّة، كثيفة ومائعةً في آنٍ، تصعد حتّى حنجرته. قطعةٌ هائلة من الجليد، قوامُها العواطف المتجمّدة، بدأت تسيح شيئاً فشيئاً، بباعثٍ من تلك الحرارة الجوّانيّة الرّاقدة، رقودَ دبٍّ أسودَ أمريكيّ قضى الشّتاءَ في سباتٍ، ثمّ أخذ في الاستيقاظ رويداً، وبدنُه يستفيق تدريجياً بقدر ما يدنو منه الرّبيعُ المنتظر.

هوَ ذا الزّمن يغادر تحجّرَه، يهتزّ من جديد.

III

Menuetto: Allegretto

١

- صباح الخير، ري ميزوساوا...

- صباح الخير. كنت أنتظرك.

بيديه معاً، ناول ريو ميزوساوا العازفةَ ميدوري يامازاكي بطاقةَ معلوماته التي كان قد أعدّها لسفره إلى طوكيو. ألقيت عليها عازفة الكمان نظرةً:

- جاك مايار، هذا اسمُك الفرنسيّ إن فهمتُ ما قلتَه لي.

- نعم، هو كذلك. أنا استعمل في شغلي الاسمين معاً. شكراً لأنّكِ قبلت لقائي...

كان ري واقفاً عند المدخل. لاحظ على خشب الأرضيّة، المرتفع بمقدار عشرين سنتمتراً، نعلاً أبيضَ وُضع باتّجاه الفضاء الدّاخليّ للمنزل.

قالت ميدوري: - هذا لك.

رسمت الصبيّة اليابانيّة على شفتيها ابتسامةً مرحّبةً مضيافةً، وهي تشير بيديها إلى النّعل. جلس الضّيفُ الفرنسيُّ على حاشية الأرضيّة الخشب، وخلع حذاءَه، ووضع فردتيه، واحدةً لصق الأخرى، على أرضية البهو المبلّطة.

أُدخِل إلى حجرة رحبةٍ، مُلئَ جدارَان من جدرانها من أعلاه إلى أسفله بالكتبِ ودفاتر التدوين الموسيقي. وفي الوسط من الغرفة يهيمنُ بيانو كبير، وقد وُضعت إلى جانبه أريكةٌ ومقعدان باللّون الأصفر النّرجسيّ.

- تفضّل، اجلس، وخُذ راحتك.

وضع ري أرضاً حقيبتَه الجلد، وغمد كمنجةٍ أحمر نبيذياً كان يحمله كحقيبة ظهر. قُرع البابُ. دخلت امرأةٌ خمسينيّة ترتدي كيمونو، حاملةً في يدها صينيّة مستديرةً، رصّت فيها ثلاثة فناجين شاي.

- أمّي.

- تشرّفنا، اسمي أياكو يامازاكي. لقد حدّثتني ابنتي مطوّلاً عنك وعن رسالتك. حتّى أنّها قرأتها عليّ. كنت متشوّقةً للقائك.

- آه، يا لها من رائحةٍ ذكيّة، رائحة جينمايشا (شاي أخضر مخلوط بحبّاتٍ أرزّ مشويّ)! شكراً كثيراً.

سألته السيّدة يامازاكي بنبرةٍ فيها شيء من الدّهشة: - تعرفه؟

- نعم، أنا ورفيقتي، نشرب الكثير من الشاي.. وكذلك نشرب الجينمايشا.

سألته ميدوري: - إن تذكّرتُ ما أخبرتني به في رسالتك، فأنت لم تعد إلى اليابان قطّ...

- كلّا، إنّها زيارتي الأولى. بعد غيابٍ دام خمساً وستّين سنةً... عمري ستّةٌ وسبعون عاماً. لقد هرمتُ.

- كان عمرك إذن أحد عشر عاماً، حين وقع ما وقع...

- نعم.

- ومنذ ذلك الحين وأنت تعيش في فرنسا...

- أجل، لقد تبنّاني صديقٌ فرنسيٌّ لوالدي. وربيت في فرنسا.

قالت السيّدة يامازاكي: - عجيبٌ أنّك عشت خارج اليابان طيلة هذه المدّة...

- أوه، يا سيّدتي، قد تبدو طريقتي في الكلام غريبةً بعض الشّيء...

- في لغتك نستشفُّ أنّك أجنبيٌّ، هذا واضحٌ، لكنّك ذلك لا يمنع التّواصل البتّة...

- لقد تجمّدت يابانيّتي الشّفهيّة، إن جاز التعبير، حين غادرت اليابان. لكنّني من جهة أخرى، واصلتُ القراءة... واصلتُها بنهم. إنّ القراءة قطعاً هي ما مكنّني من أن أحفظَ لغتي

اليابانيّة... ولاحقاً، حين صرتُ صانع كمنجاتٍ، نسجتُ علاقاتٍ مع عدد لا بأس به من الموسيقيّين اليابانيّين... وذلك ما منحني الفرصة أن أمارس لغتي في كثيرٍ من المناسبات...

كان ري يتكلّم بطيئاً، بصوتٍ عميقٍ، ونبرةٍ هادئة واثقة، متوقّفاً بين الفينة والأخرى.

- أنتِ إذن حفيدة الملازم كوروكامي...

- أجل.

- ...

اضطرّ الزائر الفرنسيّ إلى التوقّف، والتقاط أنفاسه، قبل أن يواصل الكلام.

- لم أتخيّل قطّ أن يأتيَ يومٌ ألتقي فيه حفيدته، هل تدركين؟

علّقت أيوكو يامازاكي بنبرة إعجابٍ: - يا له من مصيرٍ مذهلٍ، مصيرُك يا سيّدي.

- حدِّثاني، عن أبيكِ، وعن جدّكِ. لقد كان لقائي به خاطفاً، وصامتاً... لم يتجاوز بضع ثوانٍ، لكنّني ما زلت إلى اليوم أذكر ابتسامته لي وهو يناولني كمان والدي المكسور. بعد أن رحل الجميع؛ والدي، وأصدقاؤه، والجنود، لم يبقَ في المكان غير جدّك... وآنذاك ناداه أحدٌ ما صائحاً باسمه...

كوروكامي... بالكاد التقطتُ اسمَه. لكنّه انحفر في ذاكرتي إلى الأبد، بحروف لا تنمحي، خاصّة أنّني ربطت بينه وبين «**الشّعر الأسود**».

نظرت العازفة الشّابة إلى أمّها نظرةً مرحةً وغامضةً، كأنّما تستحثّها على الكلام...

قالت السيّدة يامازاكي: -الحقّ أنّ «كوراكامي» تعني «**إله أسود**»، وليس «**شعر أسود**».

قال ري متفاجئاً: - آها؟ يعني أنّ «**كامي**» هنا تقصدُ إله وليس شعر.

- إنّه اسمٌ عائليّ نادرٌ جداً. ويبدو أنّ مقاطعة هيروشيما، هي حيثُ يشتدّ حضورُ اسم «كوروكامي» كثافةً. ووالدي، ينحدر من هيروشيما...

أضافت ميدوري: - هل سبق أن سمعت بمياجيما... إنّه موقع ساحيّ معروف، وفيه بوابةُ توري[1] كبيرةٌ وسط البحر... فيما وراء تلك الجزيرة التي يقصدها الكثير من الزّوار، تقع جزيرةٌ أخرى، غير مأهولةٍ، تسمّى «جزيرة الإله الأسود العظيم»...

- كنت أعتقد أنّ الاسم يعني «شعر أسود». لم أفكّر لحظةً في إمكان أن يعني «إله أسود». وظنّي طبيعيٌّ قياساً إلى أنّي لم

---

(١) هيكلٌ -يكون من خشبٍ في الغالب- على شكل بوّابةٍ، يفصل بين العالمين، الدنيويّ والمقدّس.

أكن أعرف. إذ يبدو لي أنّ الاقتران بين «إله» و«أسود» غير مرجّح، أليس كذلك؟ على الأقلّ يظلّ غير متوقّعٍ بالنّسبة إليّ. ولو أنّي علِمته لكانت دهشتي قطعاً أكبر.

- هذا انقلابٌ في الصّورة التي شكّلتَها عن جدّي...

صاح ري، تاركاً هدوءَه المعتاد: - نعم! مذهل... الرّجل الذي لمحتُه من غبش الخزانة، كان إذن إلهً أسود! إله وسط السّواد، إله انبثق من قلب الظّلمات، من سواد العتمة الكابوسيّة...

ثمّ أضاف همساً، مناجياً نفسَه: - لقد أنقذني.. كما أنقذ كمان والدي...

ثمّ صمت. وجعل يحدّق في الفراغ.

٢

كان نهاراً جميلاً من شهر مايو، نهاراً من تلك النّهارات التي قلّما تشهد طوكيو لها مثيلاً، نهاراً لا مفرطاً في البرودة، ولا مفرطاً في الحرّ، انعدمت فيه الرّطوبة، وغمره ضياءٌ شديدٌ، وتزخرف بخضرةٍ زاهيةٍ، وهدهدَه نسيمٌ رقيقٌ عذبٌ. وكان ري قد وصل إلى بيت ميدوري يامازاكي في العاشرة والنّصف. وقد صرف الضيفُ الفرنسيّ والمضيفتان اليابانيّتان وقتاً لا بأس به في فحص اسم الملازم، وفي الحديث عن القوى الحيويّة التي تنسبُ للرّموز المتعلّقة بالأسماء اليابانيّة. فمرّ الوقت من غير أن ينتبهوا إلى مروره. وكادت النّهار ينتصف.

- أتمنّى ألّا تكون مستعجِلاً يا سيّدي ميزوساوا. فنحن ندعوك إلى الغداء معنا... لا مشاغل عندنا اليومَ. ونريد أن نقضيَ اليوم معك، إن لم يكن الأمرُ يزعجك.

- بكلّ سرورٍ يا سيّدتي... فأنا لم آتِ إلى اليابان إلّا للقائكما. ما من غرضٍ آخر يشغلني...

- أترككما إذن معاً. سوف اهتمّ بالطّعام... إنّه تقريباً جاهز. سأغيب ربع ساعةٍ فقط. أراكما بعد قليل.

بعد برهةِ صمتٍ، بادر ري إلى الحديث:

- لقد ذكرت لك في رسالتي أنّ حوارك مع مجلّة **موسيقى وكلمات**، هو ما كان منطلق بحثي...

- نعم. لقد أثار انتباهك ما كتبته عن جدّي... أليس كذلك؟ «**قوام وجودي، ما تعلّمته من جدّي...**».

- بلى. ذلك كان عنوان الحوار. والنقطة الحاسمة هي ذكرك أنّ جدّك كان ضابطاً في جيش المشاة... إنّ معلومة كهذه لا يمكن أن تمرّ من دون أن تُحدث فيّ بالغ تأثير...

- فهمت...

- الحقّ أنّ رفيقتي، هيلين هي من حدس الأمرَ حدساً مذهلاً. إنّها صانعة أقواس، وبالطّبع تعرف قصّتي كاملةً.

- زوجتك صانعة أقواس! مذهل! أنتما تشكّلان زوجاً مثالياً، كالقوس والكمان!

- صحيح. لقد تعلّمنا في وقتٍ واحدٍ.

- أين؟

- في مدينة صغيرة، تسمّى ميركور، في لورين...

صاحت العازفة اليابانيّة: - ميركور! أعرفها!

- صحيح؟ إنّها قصّةٌ قديمة...

صمت صانع الكمنجات برهةً، وأطرق متفكّراً، ثمّ استأنف القول:

- لقد استشعرت هيلين، منذ القرائن الأولى، الرابطَ الخفيَّ والسريَّ الذي يجمعني بك... مثلاً، حين فُزتِ بالجائزة الأولى **لمسابقة العزف الدّولية، لودفيغ فان بيتهوفن**، أتت تحمل إليّ مقالاً قصيراً يذكرك، في صحيفة **ليبيراسيون**. وما ألهمها الرّبطَ بيننا، هو الأهميّة التي خلعتِها على دَور جدّك في تعليمك...

عادت السيّدة يامازاكي.

- إلى المائدة!

كانت صالة الطّعام في الجانب الآخر من البهو. تبع ري ميدوري التي كانت تتحدث إلى أمّها بنبرة شديدة التأثّر:

- إنّ زوجته صانعة أقواس، وقد تعلّما معاً في ميركور!

أجابت أياكو هامسةً: - في ميركور!

إنّ صالة الطّعامِ حجرةٌ، مفتوحةٌ على المطبخ. وعلى الطّاولة الواسعة التي قد يجلس إليها، في أريحيّة، ثمانية أفرادٍ، وُضعت ثلاثة أطباقٍ بأوانيها.

- لقد جهّزتُ لك طعاماً بسيطاً، طبخاً عائلياً ربّما لم تجد الفرصة

لتذوّقه في فرنسا... إنّه لحم خنزير بانيه، مع كرنب مقطوعٍ قِطعاً شديدة الرّهافة...

- آه، إنّه تونكاتسو! مع ميزوشيرو! منذ زمنٍ بعيدٍ لم أتناوله...

- لكن في باريس مطاعمُ يابانيّة...

- طبعاً، لكنّ المطبخ العائليَّ نادرٌ جداً! وحتّى إن وجدت مطعماً يقدّمه، فلن يكون بمقدورك الذّهاب إليه كلّ يوم! تعرفين أنّني تركت اليابان منذ زمنٍ بعيد، فلم يعد المطبخ الياباني جزءاً من حياتي اليوميّة... لذا تريننني الآن سعيداً غاية السّعادة!

- ليس بالشّيء الكثير يا سيّد ميزوساوا...

قال ري وهو يشبك يديه تلقائياً، وينحني انحناءةً خفيفة: - إيتاداكيماسو (شهيّة طيّبة).

ردّدت ميدوري وأمّه كلمتَه ككورس.

- هل تصلّي، قبل أن تتناول الطّعام؟

- كلاّ. لم؟ أنا لا أعتنق أيّ ديانة...

أجابته ميدوري وهي تقلّد حركة يديه: - لأنّك قمت بهذه الحركة...

- آه، أحقاً قمت بذلك؟ عجيب، فأنا لا أقوم قطّ بذلك في منزلي...

- ...

قال الضيف الفرنسيّ، وهو يتذوّق أوّل رشفةٍ من حساء الميزو: - ... إنّ الطّعام لذيذٌ جداً يا سيّدتي يامازاكي!

- شكراً، يسعدني أنّه أعجبك... لكنّه يظلّ شيئاً بسيطاً...

ران عليهم صمتٌ. نظرت ميدوري بطرفٍ خفيّ إلى صانع الكمنجات. لقد تناول أوّل لقمةٍ من لحم الخنزير البانيه. ثمّ صبّ قليلاً من الشويو، صلصة الصويا، على التسوكسمونو، قطع الخيار الرّهيفة المنقوعة في الملح. فلمّا وضع في فمه تلك الهيأة البيضاويّة، عاد به الزّمن، في حركةٍ لا يستطيع لها دفعاً، إلى صباحٍ خريفيّ من أصباح سنة ١٩٣٨، حيث كان يبلغ من العمر أحدَ عشر عاماً، وكان اسمُه ري ميزوساوا، وكان يتناول طعامه، جالسا على حصير تاتامي، بإزاء والده، على مائدةٍ صغيرةٍ مستديرة. غاب عن صحبة المرأتين، ليغوص في متاهة ذكرياته البعيدة. فرأى والده مرتدياً مأزر الطّبخ، منهمكاً في صنع أطباق صغيرة. ثمّ بغتةً فتح فمه، ليطلب من أيوكو يامازاكي:

- هل لي ببيضة؟

- بيضة؟

- نعم بيضة. والمعذرة على قلّة ذوقي...

استأنف ري الكلام كالمسرنم: - أظنّني قد تناولت ناماتاماغو (بيضة نيّئة) في ذلك اليوم المذكور... لذا أتتني الرّغبة فجأةً في أن

أصبّ في هذا الأرزّ السّاخن بيضةً نيّئةً مخفوقةً مع صلصة الصّويا... يبدو أنّ مذاق هذا الأرزّ الطيّب، مع مذاق التسوكيمونو، هو ما حملني فجأةً إلى أرض طفولتي المسلوبة المُظلِمة. أجل، لقد تناولت يومها ناماتاماغو في الفطور، وكان يوم أحدٍ من سنة ١٩٣٨، يوم اختفى والدي إلى الأبد...

أخذ ري يناجي نفسه غير عابئ بحضور المرأتين. بدا لميدوري أنّ جسد الشّيخ قد حلَّ فيه شخصٌ آخرَ غير ري. أمّا أمّها، التي داخلها شيءٌ من ريبة، فقد قصدت إلى المطبخ، وعادت منه حاملةً بيضةً بيضاءَ القشرة في إناءٍ صغيرٍ من خزف.

٣

كسر ري البيضة وخفقها في حيويّةٍ. ثمّ أضاف إليها مقدار ملعقة صغيرة من صلصة الصويا. ثمّ صبّ الخليط على أرزّه، وحرّكه بعيدانه.

أخذت ميدورا وأمّها تتأمّلان الطّفل الهرمَ يأكل أرزّه بالبيض النّيء. كأنّما هما شاهدتان على قدّاسٍ دنيويٍّ، لا تستطيعان المشاركة فيه.

سألت ميدوري أمّها: - ألا يذكّرك هذا بشيء؟

- طبعاً يذكّرني.

قال ري بنبرة واثقةٍ، كأنّما استفاق لتوّه من حلمٍ: - شكراً كثيراً.

- منذ زمن بعيدٍ لم تأكل أرزاً بالبيض النّيء؟

- أجل، منذ عهدٍ بعيدٍ جداً... إنّها المرّة الأولى التي أتناول فيها هذا الطّعام، منذ ذاك الصّباح المذكور الذي تناولته فيه مع والدي... أرجو أن تعذراني على قلّة ذوقي... لقد شعرت

في ظهري بما يشبه يداً باردةً، راجفةً، تدفعنا، تحملني! فاستسلمتُ لها...

قالت أياكو يامازاكي وهي تنظر إلى ابنتها: - عفواً يا سيّدي ميزوساوا.

وواصلت ميدوري القول: - أظنّني فهمت ما حدث فيك حين استعدتَ مذاقاتٍ كنتَ قد عرفتها في طفولتك، ثمّ أضعتَها بطولِ حياتك في فرنسا... ومن غير أن تدريَ، مكّنتني من أن أفكّر في جدّي أثناء مغامرتك الخاطفة خارج الزّمن الرّاهن...

- وكيف ذلك؟

- سأترك أمّي تشرح لك، ما دامت قد تذكّرت أباها... هي أيضاً... حين رأتك تعقد الصّلة بنفسك، على نحوٍ سحريّ، وتتّصل بالطّفلِ الذي كُنتَه أيّامَ كنتَ في الحادية عشرة من عمرك، في طوكيو...

هكذا انطلقت أياكو يامازاكي تقصّ خبر رحلةٍ إلى أوروبا أصرَّ كِنغو كوروكامي على القيام بها وهو في التّاسعة والثّمانين من عمره.

- كان أبي يومها قد ترمّلَ منذ أربعة أعوامٍ، وقد بدأ يستشعر موتَه الوشيكَ. غير أنّ ذلك لم يمنعه من خوض سفره الأوّل والأخير إلى خارج اليابان. فكان أن أفصح لي عن رغبته. فأخبرت بها زوجي، فرحّبَ كلّ الترحيب بمشروع

حميّه. أظنّ أنّ أبي كان يقصد أن يُطلع حفيدَتَه على مهد الموسيقى التي تدرُسها كلَّ يوم. وكان أن انطلق والدي، كنغو كوراكامي، الذي تسمّيه إلهك الأسود، مرفوقاً بابنته وصهره، على الرّغم من كِبر سنّه، في رحلةٍ، من أسبوعين، إلى أوروبا سنة ١٩٨٧. فزُرنا عديداً من المدن الأوروبيّة التي تحتلُّ فيها الموسيقى مكانةً بارزةً في الذّاكرة الجماعيّة: فبدأنا الرّحلة من برلين؛ ومنها إلى براغ؛ ومن براغ إلى فيينا؛ ثمّ من فيينا إلى ميلانو. ومن ميلانو وافينا كريمونة، حيث متّعنا النّفسَ بزيارة متحف الكمان. وبعد زيارة عاصمة صناعة الكمان في إيطاليا، قصدنا إلى ميركور، ومنها عدنا إلى طوكيو، بعد توقّف يومين في باريس. لقد حرص والدي على أن نزور ميركور فضلاً عن كريمونة... ولم أكن أنا وزوجي نعرف غير كريمونة.... قلتُ له «ألا تكفي زيارة كريمونة، للوقوف على صناعة الكمان؟» فأجابني، كلّا، ينبغي زيارة ميركور قطعاً! وهنا نصل إلى الذكرى التي أيقظتها في قلبي، وفي قلب ميدوري، بيضتُك؛ إنّها ذكرى حدثٍ وقع في ميركور. كان والدي قد تناول، طيلة فترة سفرنا، طعاماً أوروبيّاً، حتّى اشمأزّ منه، ولم يعد قادراً على بلعه. وكان يلزمه أن يتغذّى. فدخلنا إلى المطعم الصّينيّ الوحيد في المدينة. فطلبت له حساءً بالشّعريّة، ظنّا منّي أنّها قريبةٌ من ذوقه في الأطعمة. هو لم يعرف قطّ غير مذاق مطبخ بلده البسيط والخفيف. حتى الحساء بالشّعريّة لم يستطع بلعَه.

وإذّاك طلب والدي، بنفسه، من النّادل، في فرنسيّة مرتجلة: «فضلاً... أرزّ... أبيض... وبيضةٌ...».

فوجئ النّادل من طلب أبي، فسأله: «بيضة، كيف يا سيّدي؟».

«بيضة! هكذا... بيضة!».

وفي تلك اللّحظة بادر زوجي إلى الكلام، وقد حدسَ نيّةَ أبي: «إنّه يريد ببساطة بيضةً نيّئةً يا سيّدي». وبعد دقيقتين أو ثلاث، أتى النّادل اللّطيف بإناء أرزّ، وبيضة بيضاءَ ناصعة، فوضعهما أمام زبونه الغريب. وكذلك أتى الطّباخُ، معتمراً قبّعة الشّيف، ينظرُ إلى هيأة الرّجل المسنّ، وقد داخله العجب. وأثار حضور الطّباخ انتباه الزّبائن الجالسين إلى الموائد. النّادل، والطّبّاخ، والزّبائن، جميعهم كانوا يتساءلون، ماذا عساه يفعل بطلبه الغريب، اليابانيُّ الهرِم. همس والدي لزوجي بكلماتٍ، فطلب زوجي من النّادلِ، مُحرجاً، أن يأتي حماه بإناء صغيرٍ.

اختفى النّادل؛ ثمّ عاد من فوره حاملاً إناءً فارغاً، فناولَه الشّيخَ.

«شكراً كثيراً يا سيّدي!».

كسر أبي البيضة في الإناء، ثمّ خفقها بشدّة بواسطة عيدانه. ثمّ صبّ في المخفوق شيئاً من صلصة الصويا، وخفق مرّةً

أخرى. ثمّ صبّ الخليط الأصفر البنيّ على الأرزّ. وهمس بكلماتٍ لم أتبيّنها. ثمّ التَهم في دقائق إناء الأرزّ بالبيض وصلصة الصّويا. فلما أتى عليه، شبك ذراعيه، وانحنى انحناءةً خفيفةً. عاد الطّباخ إلى مطبخه؛ واستعاد النّادل حركته المعتادة؛ وانكفأ الزّبائن على تناول أطباقهم، أو طلبها. ثمّ أُنزلت أطباقُ الطّعام التي طلبناها، على مائدتنا. فسألت ميدوري جدّها:

«هل كان طبقك طيّباً يا جدّي؟».

«آه، نعم، يا ميدوري شان (يا صغيرتي ميدوري).

«يبدو أنّها المرّة الأولى التي يطيب لك فيها الطّعامُ، مُنذ أن غادرنا طوكيو!».

«أجل، أظنّك محقّة. إنّها المرّة الأولى التي أتناول فيها الطّعام بلذّة، منذ أن وصلنا إلى أوروبا. أنا رجلٌ مسنٌّ يا ميدوري. لم تهد معدتي تقبل الأشياء اللّذيذة التي تتناولينها في البلدان التي زرتِها. لكنّني لم أندم على سفري هذا، وإن عانيتُ على مستوى الطّعام. لست نادماً. بل بالعكس أنا سعيدٌ لأنّني زرتُ أوروبا معك. لأنّ الموسيقى التي تدرسينَها وُلدت هنا... ثمّ إنّنا وقفنا على صناعة الكمان في كريمونة وهنا في ميركور! رائعٌ، كلّ أولئك النّاس الذين يصنعون الكمنجات والأقواس... لكي تصلنا الموسيقى يلزمنا مؤلّفونَ يؤلّفونَها. يلزم موسيقيّون يؤدّون الموسيقى المؤلَّفةَ،

وتلزم الموسيقيّين آلاتٌ. لكن قبل كلّ ذلك يلزمُ صنّاعٌ يصنعون تلك الآلات. يلزم عازفو كمانٍ، لكن يلزم أيضاً صنّاعُ كمنجاتٍ وأقواس. ينبغي أن تتعاون تلك الفئات الثلاث... ثلاث مجموعاتٍ من البشر... وإلّا لن تكون ثمّة موسيقى. أليس ذلك رائعاً؟ لا تنسي هذا يا ميدوري شان... أنا سأذكر ما حييت ميركور...».

صباح اليوم التّالي، تركنا مدينة لورين إلى باريس، حيث كنّا سنحضر حفلاً ليهودي مينوهين يعزف فيه كونشيرتو الكمان والأوركسترا لبيتهوفن.

انتفض ري لذكر اسم مينوهين.

نظر إلى المرأتين.

حاول استحضار المشهد في المطعم الصّينيّ، مجاهداً في تخيّل العاطفة التي استحوذت على قلب الشّيخ الذي أتى من أقصى العالم، ليزور مدينة جان باتيست ونيكولا فرانسوا فوييوم، ويريها لحفيدته. كان ري يشعر بنفسه يهتزّ بتأثيرٍ من قوّةٍ مظلمةٍ صامتة تصعد من أحشائه. لمَ قرّر الإله الأسود أن يزور ميركور، وهي المدينة غير المعروفة، والهامشية مقارنة بكريمونة؟ هل أخبرَ والدُه الضّابط، في اليوم المذكور، بأنّ كمانه من ميركور، وأنّه صَنعةُ نيكولا فرانسوا فوييوم؟ كان ري يحلّق طائراً من سؤال إلى آخر، من رابطة إلى أخرى، من افتراضٍ إلى آخر. فلّما أعياه التخبّط في اللايقين، آيَس. أدرك أنّ قلوب العالم أجمعين، في هدأةِ عزلتها وطمأنينتها،

هي أشبه شيءٍ بموناداتٍ[1] حصينةٍ، منطويةٍ على ذاتها؛ وأنها في نهاية المطاف كالأجساد في هذا العالم، مفصولة بعضها عن بعض، وغريبة، غربةً موجعةً، عن بعضها بعضٍ.

(١) الموناد هي المفهوم المركزي في فلسفة لايبنتر، وتشير، بشيءٍ من التّبسيط، إلى وحدات معزولة منغلقة تنطوي على الوجود في ذاتها.

٤

للتّو فرغوا من طعامهم. أعدّت أيوكو شاياً أخضر، وصبّت منه في ثلاثة فناجين منتظمة الشّكلِ، ريفيّةِ المظهر.

- هذه الفناجين صنعها صديقٌ فخّارٌ، يسكن في مكانٍ ناءٍ من توهوكو. نحن نحبّها كثيراً.

- إنّها جميلة، لقد أعجبتني كثيراً.

واصلت أيوكو: - إنّه شخص كرّس حياتَه للفخّار غير عابئ بأيّ اعتبارٍ تجاريّ. طبعاً يصنع أشياء بسيطة يعتاش منها. أمّا بقيّة وقته، فيخصّصه بالكامل لمحاولة تطوير فنّه وتحسينه... وفي هذا الجانب، هو جذريٌّ، ولا يتفاوض. هذه الفناجين، كانت هديّة منه.

- أحسب أنّي أفهم صديقكم. حين ينتابنا الشّعور بأنّنا أحسنّا صنع شيء ما، فإنّنا لا نرغب في أن نخضعه لدائرة التّجارة. قلّما ينتابني شعور النّجاح الكبير. لكنّني شعرت به، مرّةً أو

مرّتين... كنت أودّ أن أطرح عليكما بعض الأسئلة بخصوص السيّد كوروكامي.

- تفضل، لكنّني لا أظنّ أنّ بوسعي الإجابة عنها. لقد كان شخصاً كتوماً، لا يتحدّث إلّا قليلاً، وإن تحدّث فلا يتحدّث عن نفسه. كثيراً ما كانت تشتكي أمّي من صمته «لمَ لا يتكلّم؟! ليس من الممتع العيش بجانب شخصٍ لا يتحدّث!» أغلب معرفتي بماضي أبي، استقيتُه من أمّي، وليس منه.

- صحيح؟ كان إذن شخصاً أميل إلى الغموض والكآبة؟

- أجل. تماماً. كانت أمّي تشكو طبيعة أبيها الصّموت والإنطوائيّ، لكنّها كانت تقول كذلك: «ينبغي تفهّمه، لقد قضت عائلتُه بأكملها في هيروشيما بسبب ذاك الفطر العملاق...».

- عائلته بأكملها!

- نعم، أبواه، جدّاه، أخته وزوجها، وأطفالهما، وأخوه الصّغير ... كلّهم تفحّموا... هو كان ضابطاً في جيش المشاة. وكان يعيش في طوكيو. فأفلت من الكارثة... بضعة أيّامٍ بعد تاريخ ٦ أغسطس المصيري، عاد إلى هيروشيما... فوقف على الفظائع... فلم يستعد نفسَه... ولا تحدّث عن شيء من ذلك...

- انتهت الحرب شهر أغسطس ١٩٤٥، فما كان مصيره بعدها؟ لقد حُلَّ الجيش. بِمَ اشتغل؟

- اشتغل مهندساً في شركة تصنع النّيكل. وفيها بقي حتّى التّقاعد. تقول أمّي إنّه حاول ذات مرّة الحصول على وظيفة عند ناشرٍ متخصّص في الموسيقى الكلاسيكيّة، لكنّ الأمر لم يتمّ.

- في أيّ سنةٍ تزوّج؟

- في سنة ٤٦، ووُلدت أنا سنة ٤٨.

- كان السيّد كوراكامي مولوعاً بالموسيقى، أليس كذلك؟ فما كان يحبّ تحديداً؟ ما تفضيلاته الموسيقيّة؟

- كان يحبّ كثيراً موزارت وبيتهوفن. لكنّه كان يهتمّ أيضاً بحقب موسيقيّة أخرى. لنقُل إنّه كان يستمع بمتعة كبيرة لموسيقى مونتيفيردي وشوستاكوفيتش. ومن بين موسيقيّي القرن العشرين، كان يفضّل بارتوك وبرغ. كان معجباً بكونشيرتو بيرغ «**في ذكرى ملاكٍ**»، وكذلك عمله الأوبرالي «فوزيك». كان يقول: «أتمنّى أن تعزف ميدوري يوماً ما هذا الكونشيرتو...».

قاطعت ميدوري أمّها: - لكن...

- أكثر ما كان يحبّه هو الرّباعيات الوترية. وبخاصّة رباعيات موزارت وبيتهوفن وشوبرت... أتذكّر ما قاله لي ذات يومٍ: «إنّها نقيض ما أكره، أي الموسيقى العسكريّة».

- الموسيقى العسكريّة؟

- نعم. الموسيقى التي كانت تعمل على تحويل الجنود إلى قطعان، كما كان يقول. إنّ الموسيقى العسكريّة التي كان لا مناص له من أن يسمعها في الجيش، كانت بالنّسبة إليه، انحراف الموسيقى. بدلاً من أن تكون تجربةً جوّانيّة فردية، تسلبُ الموسيقى العسكريّة من الإنسان جوهر فردانيّته. تلك كانت كلماته... كان يمقت الموسيقى العسكريّة. أظنّه كان يحتاج إلى أن يُغرق نفسه في الموسيقى، طرداً لما علق به من موسيقى فاسدة...

علّق صانع الكمنجات: - ربّما كان يلوذ بعزلة الموسيقى لكي يتخلّص من الحماسة الجماعية التي تصاحبها الموسيقى العسكريّة وتعزّزها.

- صحيح. حين كان يعود من العمل، فإنّ أوّل ما يقوم به هو وضع قرصٍ في القارئ. كان يستمع إلى رباعيات. رباعيات موزارت الستّة التي أهداها إلى هايدن، ورباعيات بيتهوفن الأخيرة. وكانت تمرّ عليه فتراتٌ منتظمة، ينكبّ فيها على الاستماع استماعاً مرَضياً إلى **روزاموند والصبيّة والموت**. وكان يحبّ كذلك موسيقى باخ. كان لا يملّ من سماع **سونياته وبرتيتاته للكمان وحده**، يسمعها بصيغ مختلفة.

- كان يحبّ حقاً الموسيقى الوتريّة...

- نعم، صحيح. وقد دفع بهذا الحبّ حدّ أن يجعل من حفيدته عازفة كمان...

ضحكت ميدوري، ثمّ استأنفت الكلام: - كان يلوذ بالموسيقى، كما قلتَ... كلاّ، يلوذ ليس بالفعل المناسب.

سارعت إلى تصحيح الكلمة، ثمّ قالت بعد برهة تردّد: - كانت تجمعه بالموسيقى علاقات مفرطة في الشدّة. كانت شيئاً لا غنى عنه، لتوازنه النّفسيّ.... التوازن الذي ضعضعته الحرب. لم يحدّثني قطّ عن حياته العسكريّة، عمّا عاشه في الجيش، سوى مرّة واحدة. جنون جماعيّ ترفعه الموسيقى العسكريّة إلى درجاته القصوى، جنون لم يحفظ منه سوى ذكرى كابوسية، على ما أظنّ...

أفلتت من ميدوري ابتسامةٌ يطبعُها الحزنُ، لم يستطع ري أن يجيبها بأيّ كلمة.

واصلت عازفة الكمان: مرّة واحدة فقط حدّثني، وكانت استثناءً، حتّى أنّي لم أنسَها. كلّمني مثل شاردٍ، كأنّما يتحدّث إلى نفسه: «لقد ارتكبنا فظاعات... جميع الأفعال... حتّى أكثرها رعباً وهمجيّةً، تُبرَّرُ باسمِ الإمبراطور... أبداً لن أعود إلى تلك الأفعال. أشعر بالعار لأنّني كنت ضابطاً في جيش المشاة، أشعر بالعار لأنّني عشتُ...» بعد هذا الاعتراف المباغت وغير المتوقّع، غاص في حالٍ من الغياب المتأمّل...

- أمرٌ مفهومٌ من شخصٍ خسر عائلته كلّها في الحرب، وبسبب الحرب.

جعل ري يتحدّث بصوتٍ خفيض، قادمٍ من وراء القبر، كأنّما

يناجي شخصاً يسكنُه: «إنّ الملازم كوروكامي ناجٍ من القنبلة النّوويّة، أو هو ميّت-حيّ... شخصٌ ماتَ مرّةً، ويواصل الحياة... أو شخصٌ كان حيّاً، لكنّه يواصل حياةَ الموتى.... مثل النّاجين من أوشفيتز... ربّما. أنا أيضاً شيئاً ما كذلك. كلّا، أنا أبالغ. قلت كلاماً غير لائق».

رانت لحظة صمتٍ.

- لكنّ الحربَ، حرمتني من عائلتي كلّها، أي من أبي... ما دامت عائلتي لم تكن تتألّف سوى من أبي. كنّا اثنان لا غير. هو فقد أبويه صغيراً. ثمّ فقد زوجته في الثالثة من عمره. وهلك والدا أمّي حزناً على ابنتهما، إذ أصابهما سرطانٌ، وتوفيا، أحدهما في إثر الآخر، وأنا في الثامنة، ثمّ وأنا في التّاسعة... ربيتُ وترعرعت وسط مذبحة....

استقرّ صمتٌ حجريّ، صمتٌ أثقلُ وأطول من سابقه.

- ...

- أوه، لمَ أقول هذا، اعذراني...

تناول ري فنجانه، وأتى دفعةً واحدةً على الشّاي الذي برد فيه.

قالت أيوكو يامازاكي وهي تنهض من مكانها: - سأُسخّن ماءً.

- هل تعرفين سبب إصرار السيّد كوروكامي على زيارة ميركور بالإضافة إلى كريمونة؟ هل أخبرك؟ إنّ روعة كريمونة ما تزال متألّقةً، بينما ذبل اليوم صيت ميركور... لمَ إذن؟

أجابت أمّ العازفة: - صحيح، كانت مدينة حزينة... باعثة على الكآبة بعض الشّي...

أضافت ميدوري: - والحال أنّها كانت حتّى القرن التّاسع عشر مدينةً مزدهرة، تضمّ نحو ستمائة من صنّاع الكمان! عرفت ذلك لاحقاً...

قال ري: - نعم، أيّ أفولٍ هو!

- أظنّه كان يريد أن يطلعني على مركز صناعة الكمان في فرنسا ... أذكر ما قاله لي بضع سنواتٍ بعد ذلك السّفر. كان ينبغي أن أعرف كريمونة، ما دامت مدينة ستراديفاري، وأماتي، وغوارنيري. أمّا ميركور فترفض نفسَها، بوصفها مدينة آل فوييون.. كثيراً ما كان يقول لي: «ليس ثمّة الإيطاليّون فقط. إنّما في فرنسا هناك فوييوم!! جان باتيست ونيكولا فرانسوا».

٥

عادت أيوكو بإبريقها مليئاً بماءٍ ساخن. فلمّا بدأت تضع شاياً في الفناجين الثلاثة، سألها ري:

- توفي السيّد كوروكامي سنة...

- سنة ١٩٩٣. ستّ سنواتٍ بعد سفرنا الخالد إلى أوروبا. بعدها عشنا فترة حداد قاسيّة... وفي سنة ٩٥، توفي زوجي إثر أزمةٍ قلبيّة.

- ... وهل عاش والدك آخر أيّام حياته في طمأنينة؟

- عاش السّنوات الثلاث الأخيرة في مؤسّسة مناسبة لحالته العقليّة والجسمية. بعد سفرنا إلى أوروبا سرعان ما أُصيب بخرف الشّيخوخة. في البداية كنّا نرتّب أمورنا في المنزل بحيث نعتني به، لكن في نهاية المطاف صار الأمر صعباً جداً. صار لا يقوى على المشي. وصار لزاماً مراقبته على الدّوام، كيلا يسقط، كيلا يرتكب حماقةً. وكانت ميدوري غائبةً على

الدّوام، بسبب دراستها: كانت تذهب إلى معهد الموسيقى كلّ يوم، حتّى وإن لم تكن لديها دروس... أمّا أنا، فقد كنت أشتغل بنصف دوام، وبالتّالي لم أكن أستطيع البقاء معه طيلة الوقت. لذا قرّرنا اللّجوء إلى دار المسنّين، رغماً عنّي.

- لم يكن لنا حلّ آخر يا أمّي! ووالدي كان سعيداً هناك، أنا على يقين من ذلك. ولمّا كنّا نذهب لزيارته بانتظام، فقد كان يحسب نفسَه في بيته!

- ليس دائماً. قد أقول بالأحرى، إنّه لم يكن يدري أين هو... لقد طال الخرابُ ذاكرته وإحساسه بالزّمن وإدراكاته... فكان ينسى الأحداث القريبة... ولم يكن يستطيع أن يحفظ أسماء الطّاقم المشرف عليه، وأسماء غيره من النّزلاء... وكان يسألني عن أخبار أقاربه الذين توفوا في هيروشيما. وينزعج لأنّ زوجته، الميّتة منذ سنواتٍ، تأخّرت في العودة إلى المنزل. اختلطت الأزمنة في رأسه... فشقّ علينا مسايرته في منطقه... كنت أتقبّل منه كلّ شيء. لا أعارضه البتّة. لا جدوى من معارضته...

كانت ميدوري تصغي إلى أمّها وهي تدلي بتفاصيل عن جدّها، تجهلُ هي نفسُها بعضَها. وحين فرغت أمّها من الحديث، استلمت منها الكلمة.

- أحياناً كانت اضطرابات الذّاكرة والمنطق من الشدّة بحيث أعجز عن مسايرته في الكلام... تذكرين يا ماما حين كان

يدخل، بين الفينة والأخرى، في نوباتٍ من الهذيان. نوبات ما انفكّت وتيرتها تزداد مع دنوّه من النّهاية. آنئذ ما كنّا نستطيع فهم شيءٍ ممّا يقوله.. كان ينبغي أن تكتفي بأن تقول له... نعم... نعم... وكفى.

- كان يعرض له أن يردّد طيلة اليوم: «لم أستطع أن أفعل شيئاً، لم أستطع أن أفعل شيئاً...».

- وكان يقول أيضاً: «ماذا حلّ بولدي؟» على الرّغم من أنّه لم ينجب سوى بنتٍ، هي أمّي... وفي لحظات الاضطراب تلك لم يكن من حلٍ سوى أن نستمع إلى الموسيقى معاً. وبعد محاولاتٍ عديدة، انتهيت إلى أن أدرك بأنّ ما يريحه أكثر من أيّ شيء آخر هو **السونيتات والبرتيتات للكمان وحده** لباخ، و**رباعيات** شوبرت...

- الحقّ أنّ فِعلها كان كفعل السّحر! بوصيّةٍ من ميدوري كنت أُسمعه تلك السيديهات كلّما زرتُه، فكان يقول لي «آه، منذ زمنٍ طويل وأنا أرغب في أن أسمع هذا!»، حتى وإن كان قد استمع إلى تلك الموسيقى في اليوم السّابق.

مُطرقاً كان ري ينصت إلى العازفة وأمّها، تحكيانِ الطّورَ الأخير، المعذَّبَ، من حياة الملازم كوروكامي، فيتخيّل ما كان يجري في دواخل الرّجل النّاجي من هيروشيما، الضّابط السّابق في جيش المشاة، وهو يستمع، في غرفته بدار المسنّين، إلى تلك الموسيقى الوتريّة ذات القدرة العجيبة على التهدئة. أغمض عينيه.

وظلّ كذلك لحظاتٍ طويلة، كأنّه راهبٌ يحاول إخلاء قلبه من كلّ شيء.

قلقت ميدوري: - أنت بخير يا سيّدي ميزوساوا؟

تبادلت ميدوري وأياكو النّظر.

- نعم، نعم، أنا بخير... اعذراني، لقد غبت... تدريان.. في ذلك الأحد المعلوم، قبل أن يسوق الجنود أبي وأصدقائَه الصّينيّين، كانوا يعزفون **روزاموند** لشوبرت. لا أذكر ما إذا كنت قد ذكرت لك هذا التّفصيل في رسالتي...

- كلاّ، لم تذكره... لا أظنُّ أنّك ذكرت هذا التّفصيل...

- كنت أعرف أنّهم كانوا يعزفون رباعية وتريّة، لكنّني لم أكن أعرف أيّ رباعيّة بالضّبط... إنّ فيليب، أبي الفرنسيّ، هو من أخبرني بأنّ المعزوفة كانت **روزاموند** لشوبرت. يومها كان قد أتى يتحدّث إلى أبي، لكن بسبب التمرين على العزف لم يستطيعا الحديث، فضربا موعداً مساءً. وانصرف فيليب من فوره. لكنّ الوقت مع ذلك أسعفه ليحضر بداية عزف **روزاموند**. ربّما لم يسمع الحركة الأولى بأكملها، لكنّه استمع إلى جزء لا بأس به من الـ**إيقاع السريع المرح، بدون مبالغة**... كثيراً ما ردّد على مسامعي أنّه يحتفظ بذكرى حيّة عن تلك اللّحظة. هكذا كما ترين، أعرف أنّ الموسيقى التي كانوا يتمرّنون عليها هي **روزاموند**.

صاحت ميدوري بإعجابٍ: - إنّها موسيقى مهيبة!

- ... كذلك عزَف أبي مقطوعة أخرى... بمفرده... عقب قدوم الجنود... كنت أنا متوارياً في الخزانة... أرتجف... لكنّي جرؤت مع ذلك على النّظر من فتحة القفل... كان الجنود يقفون هناك، ساكنين، أمام ضابطٍ طويلٍ رشيقٍ، لا بدّ أنّه والدك... وكان كمان والدي على الأرض، محطّماً... كانوا قد داسوه...

- هذا فظيع، لا تتخيّل كم تألّمت حين عرفت أنّ جُندياً داس بقدميه كمان والدك... شيء لا يُتصوَّر!

- نعم، فظيع... لكن ما دام الإنسانُ قادراً على قتل الإنسان، فلا شكّ في قدرته على تحطيم كمان... مجرّد كمان. هذا أمرٌ قابلٌ للفهم...

- أنا على يقين من أن أباك كان يعتبر كمانَه بمثابة جزءٍ من جسده...

- نعم، بالتّأكيد... المهم... عند نقطة ما من مجريات الأحداث، طُلب إلى أبي أن يعزف شيئاً... ولا بدّ أنّ الطّالب كان السيّد كوروكامي، إذ لا أرى غيره يفعل ذلك... فعزف مقطعاً، مقطعاً قصيراً جداً... ولا بدّ أنّه عزف على كمان صديقه الصّيني، ما دام كمانه لم يعد قابلاً للاستعمال... ولم يتجاوز العزف ثلاث دقائق أو أربعاً... أيّ قطعةٍ عزف؟ لا أدري.

من غيري سمع تلك الموسيقى؟ والدك... الذي غادر دُنيانا؛ الجنود الذين يستحيل العثور عليهم، ولا بدّ أنّهم... أيضاً رحلوا عنّا؛ ثمّ أخيراً الموسيقيّون الصّينيّون الثلاثة الذين لم أرَهم بعد ذلك اليوم... الخلاصةُ، لا شهودَ. لم أكن أملك إذن أدنى فكرة عن هويّة تلك القطعة الصّغيرة...حتّى أتاني يوماً ما يشبه الإلهام وأنا أسمع إلى مقطع **الغافوتة على نمط الروندة من البرتيتة الثالثة للكمان**، لباخ.

كفّ ري فجأةً عن الكلام. فورةٌ من أحاسيس كانت تصعد من صدره، فتجبره على التوقّف لحظةً، لالتقاط أنفاسه.

صاحت ميدوري: - مذهلٌ كيف استطاعت موسيقى باخ أن تذيبَ كلّ كثافة الزّمن!

وردّاً على دهشتها رفع ري عينيه إلى السّقف فاتحاً ذراعيه...

استأنف كلامه: - حدث ذلك سنة ١٩٧٢ أو ٧٣، بُعَيدَ استقراري بباريس. تعلمين أنّني أثناء فترة تعلّمي صناعة الكمنجات استمعت إلى تسجيلات كثيرة لموسيقى الكمان. في البداية كان الأمر لا بأس به مع أسطوانات الفونوغراف ٧٨، لكن ما إن أتى عصر المكروسيون حتّى صرت أحاول التآلف مع موسيقى كبار العازفين. وذات يوم كنت أستمع إلى قرصٍ لمينوهين يعزف **السونيتات والبارتيتات للكمان وحده**، لباخ. فلمّا أتت لحظة **الغافوتة على نمط الروندة**، حدث فيّ شيءٌ غريب: خِلتني أسمع، عبر صياغة مينوهين المنحوتة، كمانَ أبي. فجأةً تقوّضت مسافةُ ثلاثين عاماً، كأنّما أبي يعزف أمامي... أظنّه في

ذلك اليوم، قبل أن يُقتادَ إلى مخفر الشّرطة، قد عزف **الغافوتة على نمط الروندة**، وربّما عزفها بطلبٍ من الملازم كوروكامي...

فوراً، ومن دون أن تقدّم أيّ شرحٍ، طلبت ميدوري من ري العودة إلى صالة الموسيقى.

ارتاح ري على مقعدٍ من المقعدين، بينما جلست أياكو، بإزائه، على الأريكة. تقدّمت العازفة إلى البيانو الكبير الذي وُضعَ فوقَه كمانُها. أخرجت الكمانَ من غمده ودوزنته في ثوانٍ. ثمّ انطلقت تعزف **الغافوتة على نمط الروندة**. كان نور الظّهيرة البرتقاليّ يقتحم الغرفة جانبياً، عبر النّافذة الكبيرة المشرفة على الحديقة. فيضيء النّصف العلويَ من جسدها المرهف المتمايل في عذوبة على إيقاع الموسيقى البلّورية المنبعثة من كمانها صَنْعَة المعلّم ستراديفاريوس.

٦

وبعد أن أعادت الكمان إلى غمده، جلست إلى جانب أمّها، وقالت لري:

- لقد قلت لك إنّ جدّي كان كثيراً ما يستمع إلى **السونيتات والبارتيتات** لباخ، وأنا نفسي كثيراً ما عزفت **الغافوتة على نمط الروندة** بطلبٍ منه.

- بطلبٍ منه؟!

- نعم... بطلبٍ منه... لا أستطيع أن أقول لك كم مرّةً بالضّبط، لكن المؤكّد أنّني كثيراً ما عزفت له هذه التحفة... ربّما تكون هذه قرينةً أخرى تعزّز يقينك...

- نعم، بالتّأكيد.

- وزيادةً في العجب، هو أيضاً كان يفضّلها بعزف مينوهين...

- صحيح؟ لا أكاد أصدّق... لا أكاد أصدّق...

وعاد ري إلى وضع السّكون، غارقاً في عواطفه.

٧

سيّدي ميزوساوا، بحسب رسالتك، على ما أذكر، فقد بدأت تكوينك في ميركور، ثمّ ذهبت بعدها إلى كريمونة، وفيها أقمت مدّةً أطول من مدّة إقامتك في ميركور. أليس كذلك؟

- بلى. لقد بقيت في ميركور خمس سنواتٍ، وفي كريمونة ستّ عشرة. كثيرٌ من صنّاع الكمان الفرنسيّين يتعلّمون الصّنعة في ميركور، لكن في حالتي أنا كان عليّ أن أذهب للتعلّم في كريمونة أيضاً. لأنّ قضيّة حياتي الكبرى، إن لم أقل الوحيدة، مُذ انخرطت في صنعة الكمنجات، كانت هي إصلاح، أو ترميم، كمان أبي المكسور. لذا كان عليّ أن أتعلّم كلّ التقنيّات اللازمة، على يد معلّمٍ ضليع في ترميم الآلات الوتريّة.

سألته أيوكو: - رمّمت إذن كمان والدك؟

- نعم.

- رائع!

مكتبة
t.me/soramnqraa

- لقد استغرق منّي الأمر وقتاً، وقتاً طويلاً، لأنّني ما كنت لأضع يدي فيه قبل أن أكون على يقين من تكويني... كان كمان والدي محطّماً لدرجةٍ كبيرة، حتّى أنّ معلّمي آيسني من إصلاحه. لكنّني كنت مصرّاً على إنقاذ تلك الآلة. كانت هي الشّيء الوحيد الباقي من أبي... وكان حقاً في حالٍ يرثى لها. عسكريٌّ همجيٌّ داسَه بكامل ثقله. لقد تحطّم... صار فُتاتاً.. طال التحطيم حتّى روحه.

صاحت ميدوري: - يا إلهي! حتّى الرّوح انكسر! يعني أنّ الصّدر تحطّم؟

- نعم. وليس الصّدر وحده، بل حتّى الرّقبة والمشط والفرس، باختصارٍ كانت كلّ أجزائه تحتاج ترميماً. حتّى الظّهر تحطّم، وإن بدرجةٍ أقلّ. لم يبقَ فيه جزء سليم، سوى المفاتيح وراحة الذّقن...

علّقت ميدوري: - هذا إذن ليس ترميماً، وإنّما صناعة من جديد.

- بمعنى ما، صحيح. لكنّني أردت أن أنقذ فيه كلّ ما يمكن إنقاذه... لذا حرصت على أن أعالجه ببطءٍ، ببطءٍ شديد، خطوةً خطوة، قطعةً قطعة، نقطةً نقطة. كنت حريصاً على أن تكون كلّ حركةٍ أقوم بها، وكلّ مرحلةٍ أقطعُها، في طريق إصلاح الآلة، مثاليةً، لا تشوبها هنّة. كان الأمر بالنّسبة إليّ محاولة لبعث كمان والدي، سعياً إلى إعادته إلى حاله الأولى،

أن أنفث فيه عافيته السّابقة، كأنّما أُصلح، بجراحةٍ جذرية، جسدَ والدي التّالفَ...

ومرّةً ثالثةً كفّ ري عن الكلام، بباعثٍ من انفعالٍ صامتٍ يهزّهُ عاصراً قلبَه.

صمتت المرأتان، إذ لم تجرؤا على أن تسألاه مزيداً من الأسئلة. ما عادتا تسمعان سوى تنفّسه الذي صار، في ثوانٍ، أوضحَ وأسرع من المعتاد. تبادلتا النّظر. ثمّ قامت ميدوري من مقعدها، قاصدةً الأرفف المليئة بدفاتر التّدوين الموسيقي. مدّت يدها إلى مجلّد ضخم كان يشدّ الكتبَ. وعادت تجلس إلى جانب أمّها، وفتحت المجلّد على صفحةٍ مزيّنةٍ بعديد الصّور، بينها صورةٌ اصفرّت على نحوٍ بيّن. وضعت الألبوم مفتوحاً أمام ري الذي كان ما يزال غارقاً في صمته العميق، يتنفّس مثل مريض ربوٍ حين تبدأه أزمة.

٨

كان صمتاً مشرعاً، ككهفٍ مظلمٍ غائر. صمتاً يقود إلى ماضٍ بهيمٍ ينساب فيه، من غير انقطاعٍ ولا اضطرابٍ، سيلُ صوَرٍ حيّة وذكرياتٍ لا تفنى. غاص ري في مسار تعلّمه كاملاً. وصوله إلى مدينة جان باتيست فوييوم، واستقراره لدى المعلّم لابرت. لقاؤه وهيلين. سفره إلى كريمونة، وتعلّمه على يد معلّمِ صناعةِ الكمانِ وترميمِه، الشّهير لورنزو زاباتيني. شروعه في «عمل حياته»، lifework كما كان يسمّيه أحياناً، وقد بلغ من العمر ثلاثاً وأربعينَ، أي بعد اثنتين وثلاثين سنةً من تحطّم روح والده إثر التدمير الهمجيّ الذي طال كمانَه فتحطّمت كلُّ أجزائه، بما فيها روحه. عملٌ كان أشبه بالأشغال الشّاقة، وتطلّبَ صبراً من فولاذ. وكلّ ذلك تحت بصر ورعاية المعلّم زاباتيني الذي رعى ري رعايةَ الأب ابنَه، وتابع تفاصيل العمل في أدقّ دقائقه، بعدما أحاط علماً بدافع الفتى إلى استثمار كامل كيانه في ترميم وإصلاح كمانٍ تحطّم حتّى ما عاد يملك ملاح الكمان، ولا قيمةَ آلةٍ صنعها معلّمٌ قديم. وما

يزال ري يتذكّر كلام معلّمه الذي راقب عمله عن كثبٍ، طيلة سنة:

- الآن صار بمقدورك أن تحلّق بجناحيك... فانطلق. وإن احتجت مشورةً أو نصحاً عُد إليّ...

إثر ذلك قرّر ري أن يعود إلى باريس ويشتغل لحساب نفسه. كان ذلك سنة ١٩٧١، أمّا هيلين التي لم يكن يراها طيلة فترة تعلّمه بكريمونة، سوى مرّتين في السّنة، خلال الشّتاء والصّيف، ولكنّهما ما كفّا عن التراسل؛ فقد استقرّت بباريس وفتحت مشغلاً بسيطاً لصنع أقواس الآلات الوتريّة، في شارع لابويسيه بالدّائرة الثامنة. وقد عثر ري على استوديو صغير لا تتجاوز مساحته ١٥ متراً، غير بعيدٍ من ساحة كليشي. وهناك استقرّ -فكان له الاستوديو سكناً ومقرَّ عملٍ- طيلة سنتين، لم يكن يقابل فيهما هيلين، سوى مرّتين في الأسبوع، لفرط انشغاله بالكدّ والعمل كسباً لعيشه، صانعاً وسط شساعة العاصمة المفترسة. وقد صنع بضع آلات كمان وتشيلو؛ وأصلح ورمّم غيرها؛ وانكبّ على ضبط وصيانة الآلاتِ، قديمِها وحديثِها. فلم يكن لديه من الوقت لأبيه إلّا قليلاً، لكنّه أبداً لم يهمله. وشيئاً فشيئاً استطاع ري أن يصنع لنفسه صيتاً في أوساط الموسيقيّين. بفضل دقّته وجديّته في العمل، وصدقه، واحترامه الآجال، وحسن إصغائه إلى الآلة والعازف في آن، استطاع أن يوسّع من مدى زبائنه، من العازفين المنفردين حتّى عازفي الأركسترا، ومن الهواة ذوي المستوى الرّفيع، حتّى طلبة المعاهد الموسيقيّة. وفي

غضون ستّ سنين أو سبع، استطاع أن ينتقل من استوديو ١٥ متراً، إلى محلّ ٣٢ متر، فـ ٤٧، ثمّ مباشرةً إلى ٩٠ متراً مربّعاً. ثمّ إنّ الصّدفة ساهمت في أن يعثر على محلٍّ مثاليّ لمشغله، في زقاق نابولي، غير بعيد عن المعهد الموسيقي بزقاق مدريد. ومن حينها صار يستطيع أن يمنح أباه وقتاً أطولَ. وبعد بضع سنين من عودته إلى باريس، انتهى إلى كسب السّكينة اللازمة لكي ينطلق في مشروع صيانة-ترميم كمان والده.

فقضى كذلك فترةً طويلةً في عزلة مشغله، مقابلاً آلة والده المعطوبة التي بدأت تستعيد، شيئاً فشيئاً صورتها الأولى، وبريقَ العافية.

٩

- شكراً لأنّكِ أريتِني هذه الصّور. في هذه تحديداً، أظنّني أستطيع تمييز الوجه الذي ظهر لي ذلك اليوم، في غبش النّهار، وجه الرّجل الذي ناولني الكمان، وجه الإله الأسود

جنحت الشّمس إلى المغيب. نظر ري إلى ساعته.

- السّاعة الآن الخامسة! لقد أخذت الكثير من وقتكما. آسف!

- كلّا يا سيّدي ميزوساوا. لقد أتيتَ من بعيدٍ جداً، أتيت من باريس من جهةٍ، ومن جهةٍ أخرى أتيت من ماضيك الياباني القصيّ... لم أشعر بمرور الوقت. أسعدني الحديث عن والدي معك... اليوم اغتنت الصّورةُ التي حفظتُها عنه، بالكثير من التّفاصيل واللّطائف الدّقيقة. أشكرك بحقٍ.

أحنى ري رأسه انحناءةً خفيفةً، ثمّ بدت عليه أماراتُ تردّد منعه من الكلامِ بضع ثوانٍ. ثمّ أخيراً، مال ليلتقط غمد الكمان

الذي كان قد وضعه بجانبه على المقعد. ثمّ فتحه وأخرج منه الآلة الرّاقدة فيه.

- إنّه كمان والدي بعد التّرميم...

صاحت أياكو: - إلهي، أتيتَ به!

- لم يبقَ منه إلّا نحو ١٥ أو ٢٠ بالمائة ممّا عرفَه أبي، لكنّه قد أُنقذَ بفضلِ جدّك. إنّه كمانٌ صَنْعةُ نيكولا فرانسوا فوييوم، الأخ الأصغر لجان باتيست فوييوم. لقد وجدتُ توقيعه بداخله. لا أدري ما إذا كان والدي قد وجد الفرصة ذلك اليوم، ليُخبر الملازم كوروكامي بأنّ الكمان يحمل توقيع الأخ الأصغر للمعلّم الكبير فوييوم... لا أدري كيفَ، أو لماذا، انتهى المطاف بهذا الكمان بين يديّ أبي...

- أليس إصرار جدّي على زيارة ميركور علامةً على أنّه ظلّ يحتفظ بذكرى كمان والدك؟ لا بدّ أنّ السيّد ميزوساوا قد أخبره بنفسه أنّ الكمان صَنعةُ نيكولا فرانسوا...

أومأت أمّها موافقةً: - بلى، أنت محقّةٌ يا ميدوري... وهذا يفسّرُ لما كان والدي على اقتناعٍ بأنّ زيارة ميركور لا غنى عنها...

- ما أجمله!

- لقد غيّرت الصدر والجنب بالكامل... غيّرت الكثير. وأعدتُ طلاءَه... منظره إذن تغيّر على نحوٍ بيّن. لو أنّ والدك رآه لما تعرّف عليه. وقد كتبت اسمي بداخله، إلى جانب اسم نيكولا

فرانسوا فويوم، لكن بحروف أصغرَ.

- هل لي أن أجرّبَه؟

- أجل، بالتّأكيد. يشرّفني ذلك...

عمدت ميدوري إلى الكمان البرّاقِ المصبوغ بحمرةٍ داكنة، الكمان الذي عاد من ماضٍ دمويٍّ، حيث اغتيل، فانتشله من الموتِ جدُّها كنغو كوروكامي، ثمّ بعثه إلى الحياة بمعجزةٍ صانعُ الكمنجاتِ، ابن صاحبِه الذي اختفى إلى الأبد صباح يومِ أحدٍ من أيّامِ سنة ١٩٣٧. ولمّا همّت بالعزف، بعد أن ضبّطت الأوتار قليلاً، خطرت ببالها فكرة. قالت لري وهي تشير إلى القوس المخبوء في الغمد:

- ألا يجدر بي أن أعزف بواسطة هذا القوس؟

- ليس بالضّروري... إنّه قوسٌ صنعته هيلين، رفيقتي... أقصد زوجتي. لقد حاولت أن تصنع هذا القوس وهي تفكّر في كمان والدي بعد التّرميم.

- سأعزف إذن بقوس رفيقتك... وضعت ميدوري قوسَها وتناولت قوس هيلين. ثمّ قصدت إلى الموضع الذي كانت قد عزفت فيه من قبل **الغافوتة على نمط الروندة**، ومرّةً أخرى عزفت نفس قطعة باخ. كانت نغمات الجواب (الحادّة) ترنُّ كصفٍّ طويلٍ من قطرات ماءٍ نقيٍّ تسكبها سماء غائمةٌ معذبة، تتلألأ عند أشعة الشمس الأولى التي

تخترق، في مُخاتَلةٍ، أوراق الشجر المخضرّةَ في غابة شمالية وافرة، بينما النّغمات الوسطى ونغمات القرار (الخفيضة)، فكانت مثل كُبَب قطنٍ، تنزلق على بساطٍ من مخمل، فتثير الانطباعَ بدفءٍ حميمٍ ينبعث من مدفأة رخامية ظلت موقدةً طوال الليل. زد على ذلك، كان العزفُ ينطوي على تساوٍ مدهشٍ في الطبوع. كانت الموسيقى تتقدّم، ثمّ تتراجع، وتصعد، ثمّ تنزل في حرّيةٍ بهيجةٍ؛ فتبعثُ في النّفس صورةَ رقصةٍ مبهجة مرحة تبدو كأنّها تعكس سعادة المشي وسط منظرٍ سحريّ.

١٠

- إنّ للآلة رنيناً مذهلاً. لقد أحسنتَ صنعاً يا سيّدي ميزوساوا! ثمّة تناغمٌ صوتيٌّ كبير بين كلّ المستويات، وكلّ الأوتار... عملٌ مذهل! آلةٌ تثير حقّاً في العازف الرّغبةَ في أن يعزف عليها...

- حقّاً؟ أنت صادقةٌ معي؟

- نعم! صدقاً، أراها آلةً مميّزةً، ليس كلّ يومٍ نصادف مثلها...

أعادت ميدوري الكمان والقوس إلى الغمد، ثمّ وضعت الغمد على الطّاولة المستطيلة الموجودة بين الأريكة والمقعدين، والتي كانت تنهمر عليها آخر أشعّة شمس النّهار.

- حسناً إذن، أنا أعهد إليك بهذا الكمان. أعطيكِ إيّاه. سأكون سعيداً إن ساعدتِه في أن يحيا ويزدهر... منذ أن فرغت من ترميمه سنة ١٩٨٢، أريتُه الكثير من العازفين. بعضهم أراد أن يشتريه، لكنّني كنت أقول لهم دائماً إنّه ليس للبيع...

- أؤكّد لك يا سيّدي ميزوساوا، كلّ عازف كمانٍ محترف لا بدّ أن يرغب في العزف عليه...

- جدّك هو من أنقذه. وكانت رغبة جدّك أن تصيري عازفة كمان. وقد صرتِ عازفةً معترفاً بها دولياً. الطبيعيّ إذن أن أعطيك الكمانَ، إن كنتِ ترينَ إمكانَ أن تصنعي وإيّاه لُحمةً تولد منها موسيقى تلائمُ تطلّعاتك... إنّ كمان والدي سيكون معك أسعدَ منه معي. إنّه يحتاج أن يعبّر...

- أوه، سيّدي ميزوساوا...

انحبس الكلامُ في حلق الشّابة إذ باغتها الكرمُ الذي الذي ما كانت لتتوقّعَه. التفت إلى أمّها التي بدت مبهوتةً أكثر منها... وبعد برهة صمتٍ طويلةٍ، استأنفت ميدوري الكلامَ، كابحةً الدّموع التي توشك أن تنفجر بها عيونُها:

- شكراً، سيّدي ميزوساوا. لا أدري ما أقول... إنّها هديّة ثمينة... ما كنت أنتظرها...

واضطرّت إلى أن تكفّ عن الكلام، حتّى تمرَّ موجةُ العاطفة الجيّاشة...

- على أيّ حالٍ، شكراً على ثقتك. لا أدري كيف أشكرك... سأعتني بكمانك، بوالدك... سأبلغك بأخباره، من حين إلى آخر.

***

هكذا هي إذن قصّة كمان يو ميزوساوا: صنعَهُ نيكولا فرانسوا فوييوم، وامتلكه يو ميزوساوا، وتعرّض لحادث همجيٍّ حطّمَه شظايا، ثمّ انبعث على يدي ابنه ري ميزوساوا، أو جاك مايار الذي صار صانع كمنجاتٍ ذائع الصّيت، وبعدَ خمسٍ وستّين سنةً من الحادث الأليم هو ذا يعود إلى كنف أسرة الرّجل الذي عهد به، ظهيرة اليوم المذكور، إلى الصبيّ الذي لاذ، متكوّماً، مختبئاً، في الظّلمة الضيّقة للخزانة التي وفّرت له الحماية.

١١

لمّا عهد ري ميزوساوا بكمانه -كمان نيكولا فرانسوا فوييوم، كمان والده الذي بُعث من الموت- إلى ميدوري يامازاكي، حفيدةِ الإله الأسود، أحسَّ بنفسه قد تخفّف من ثقلٍ حملَه دهراً؛ لقد تحرّر من أغلال الأشغال الشّاقة التي كان يجرجرها حتّى تلك اللّحظة.

وفي اليوم التّالي، استيقظ بمزاجٍ حثّه على استكشافِ طوكيو. إنّه حرّ من كلّ التزام، وأمامه يومٌ بأكمله قبل العودة إلى باريس. قادته قدماه، تلقائياً، إلى حي شيبويا، حيث سكن منذ خمسة وستّين عاماً. لقد تحوّلت طوكيو، في نصف قرنٍ، تحوّلاً جذرياً: كان ري بعلم مسبقاً بأنّه لن يجد هناك شيئاً، لن يتعرّف على شيء. لذا قصد، أوّل ما قصد، إلى البلديّة يستعلمُ منها بعض المعالمِ لجولته.

وفي مصلحة الأرشيف كشف الزّائرُ للموظّف ذي الخمسين عاماً تقريباً، عن رغبته في أن يوافي الموقع الذي كان يضمّ المركز الثقافيّ البلديّ سنة ١٩٣٨. وعمد الموظّف المذكور إلى مجلّد ضخمٍ

يضمّ خرائط قديمة. فتحه على صفحات توافق الفترة المذكورة، فوجد من دون عناءٍ الموضع الذي كان يقع فيه المركز الثّقافيّ البلديّ.

- لقد تغيّر المكان كثيراً. لقد سُوّيت المدينة بالأرض سنة ٤٥.

- نعم، أعلم أنّ الهجوم الجوّي، في العاشر من شهر مارس، قد خلّف أكثر من مائة ألف قتيل، ومليوناً من المنكوبين. يقال إنّ ثلاثمائة من قاذفات الصّواريخ B29، ملأت السّماء مثل غمامة من الذّباب، وأنّها أَطلقت في ساعتين ثلاثمائة وثمانين ألف قنبلةٍ حارقة...

- نعم، كان شيئاً فظيعاً، أظنّ... أنّه كان جحيماً يكاد يماثل جحيم القنبلة النّووية الذي أُلقيت على هيروشيما والتي قتلت عدداً مماثلاً من النّاس، في بضع ثوانٍ. كانت النّتيجة نفسُها، إن استثنينا الإشعاع. بالطّبع.. في العاشر من مارس، كانت الأحياء الشّعبية الشّرقيّة هي المستهدفة. أمّا هنا في شيبويا، فإنّ غارات شهر مايو هي التي كانت الأفظع...

- لا بدّ أنّ معالم الأحياء قد انمحت عقبَ إعادة البناء...

أجاب الرّجل الخمسينيّ: «أجل». من دون أن يرفع عينيه إلى الشّيخ، وهو يقلّب الخرائط نائساً بين الحالية ونظيرتها من سنوات ١٩٣٥-١٩٤٠. توقّف كذلك برهةً عند الخرائط التي تشير إلى المناطق التي احترقت في القصف المتواصل على طوكيو سنة ١٩٤٥.

- حاولت أن أحدّد موقع المركز الثّقافيّ على هذه الخريطة الحاليّة. تستطيع أن تذهب بها. وسترى بنفسك. ربّما نجت بعض الأزقّة.

- شكراً سيّدي. لطف كبير منك.

- العفو. هل تقوم بأبحاث؟

- كلّا. إنّما كنت أعيش هنا سنة ١٩٣٨. فأتيت أزور حيَّ طفولتي، بعدما قضيت أزيد من ستّين سنةً في الخارج.

- حقّاً!

- أحبُّ أن أزور المكان حيث كان يعيش والديَّ. في عنواننا البريدي كانت مكتوبةً كلمة شينسن، إن لم تخنِّ الذّاكرة. معناها «نبع الإله» أليس كذلك؟

- ... بلى... عجيب... لم أفكّر من قبل في دلالة شينسن...

قلّب موظّف الأرشيف من جديد خريطة المناطق المحروقة سنة ١٩٤٥. وبعد برهة صمتٍ استأنف الكلام:

- إنّ حيّ شينسن ليس ببعيدٍ عن هنا. يمكنني أن أعيّنَه لك على الخريطة التي أعطيتكَ، إن أردتَ ذلك.

- آه، لطف منك...

- هو ذا... مع قليلٍ من الحظّ ستعثر على آثارٍ للمكان الذي عرفتَه. بحسب ما أرى فإنّ كلّ هذه المنطقة جنوبَ محطّة

شينسن قد أفلتت من الدّمار. جولةً ممتعةً إذن، حول نبع الإله!

- شكرا جزيلاً يا سيّدي!

بعد نصف ساعةٍ من المشي، وجد ري نفسه أمام عمارةٍ تأوي خزانة حيٍّ صغيرةً. هناك كان موقع دار الثّقافة كما كانت تسمّى آنذاك. أمّا ما يراه أمامَه الآن، فلا يوحي إلى ذاكرته بشيء. واصل السّير. فلمّا بلغ تقاطع طريقٍ، رأى، خلفَ جدارٍ من الأنقاض شجرة كرزٍ هائلة ذاك أغصانٍ سوداءَ تملؤها العقد؛ سلك درباً تندر فيه المتاجرُ، وتخفت فيه، خلفَ ظهره، ضوضاء المدينة. وهناك، خلافاً لكلّ توقّعٍ، انفتح أمامَ ري بغتةً فضاءٌ. قادته قدماه. وكان يتصاعد فيه إحساسٌ. استعاد الحركة والإيقاع اللّذين كانا يحكمان جسدَه في ذلك اليوم المعلوم، حين كان يسير قاصداً إلى المنزل، يسايرهُ كلبٌ شيبا ظهر في طريقه ظهوراً مفاجئاً وغامضاً. توقّف أمام مقصورةٍ جديدة كلَّ الجدّة، مصنوعةٍ قطعاً من الخشب، وقد زُيّنت بغطاءٍ بيج يحاكي الآجُر. نظر حواليه. لا شيء من مظاهر المكان يذكّره بطفولته. ومع ذلك، كان إحساسه المميّز بالفضاء يخبره بأنّ ذاك هو المكانُ. فرأى نفسَه في هيأةِ الطّفل ذي الحادية عشرة الجالس القرفصاء. وكان اللّيل يهبط رويداً رويداً. ونور العمود يأتي من جهة اليسار. وبدأ يشعر بحرارة الحيوان تنتشر في بطنه. هوى في النّوم...

١٢

تلك اللّيلة أتت مومو تزوره حتّى غرفته في الفندق.

IV

Allegro moderato

١

قَرع ري البابَ.

أجابه باليابانيّة، على الفور، صوتُ امرأةٍ واهنٌ متعب: - أُدخُل.

كانت غرفةً فرديّة مشرفة على حديقة المستشفى. ممرضةٌ في بلوزةٍ بيضاء، وفي أذنيها سمّاعة، تقيس ضغطَ عجوزٍ طاعنةٍ في السنّ، راقدةٍ على سرير طبيّ مستقيمٍ على نحوٍ بيّن. التفتت الممرّضة إلى ري، ورفعت إليه يدها علامة «انتظِر!». وطيلة تلك المدّة ظلّت العجوز تبتسم لري في صمت. علّقت الممرّضة سمّاعتها على رقبتها، ودوّنت على ورقةٍ حرارةَ العجوز وضغطَها، ثمّ وجّهت لري كلماتٍ لم يفهم منها شيئاً. فقالت له العجوز بصوتٍ خفيض:

- تقول إنّ بوسعك أن تتناول الكرسيّ وتجلس إلى جانبي.

تلك الجملةُ، الموقّعة أحسنَ إيقاعٍ، التي نطقتها العجوز بيابانيّة تسيل من نبع اللّغة الأصليّ، ذكّرت الزّائر بالرّعشة التي أحسّ بها يوم سمعَ، وهو تلميذٌ في الإعداديّ، صوتَها البلّوريّ ينطق بسلاسةٍ

وتلقائيّة كلماتٍ يابانيّةً. لقد صار صوتها اليوم أعمقَ ويعتوره شيء من خدشٍ، لكنّه حفظَ تلك السّلاسة المنسابة التي تجعل أصواتَ اللّغة تلمع ببريقٍ ماسيّ.

نطق ري بالكلمة الصينيّة الوحيدة التي كان يعرفُ: – Xièxiè (شكراً).

جلس بجانب السّرير، وامسك باليد المهزولة للمريضة العجوز التي هزّتها العاطفة، فلم تستطع أن تحبس دموعَها. شمس ظهيرةٍ من ظهائر بداية الصّيف تُلقي بصفاءٍ منيرٍ على غطاء السّرير النّاصع البياض. لقد استُؤنفَ، في غرفةٍ بمستشفى شانغهاي، الكلامُ الذي كان قد انعقد بين كائنين التقيا لقاءً خاطفاً في طوكيو منذ نصف قرنٍ.

مكتبة
t.me/soramnqraa

٢

توصّل ري ذات يومٍ من ربيع ٢٠٠٤ بإيميل من شابٍّ صينيّ أخبره فيه بأنّه من طرف لِن يانفِن. كانت الرّسالة مكتوبةً باليابانيّة. ويقول كاتبُها إنّه يكاتبُ ري ميزوساوا بالنّيابة عن خالة أمّه التي ترغب في التّواصل معه، ومعرفة ما إذا كان ابن يو ميزوساوا الذي عرفته في طوكيو خلال سنتَي ١٩٣٧-١٩٣٨.

لمّا أيقنت لِن يانفِن، بدنوّ أجلها، بسبب سرطانٍ متقدّمٍ يطحنُ كبدَها، فقد أفضت إلى حفيد أختها برغبتها في تقصّي أثر ابنِ يو ميزوساوا الذي اعتقلته الشّرطة العسكريّة ذات ظهيرة من يوم أحدٍ من سنة ١٩٣٨، أثناء تمرينهم ضمن فرقة رباعي وتريّ كان مشكّلاً منها ومن والده وصينيّين آخرين. فانطلق الحفيدُ يتقصّى أثر الصبيّ على الإنترنت، إرضاءً لخالته. ووجد أشخاصاً كُثُراً يحملون ذاك الاسم ففحص مسار حياتهم. وحين أطلع خالته على نتائج بحثه، فتنبّهت إلى بعض القرائن -«يتيم»، «تبنّاهُ فرنسيٌّ»، «تلقّى تكويناً في صناعة الكمان في كلّ من فرنسا وإيطاليا» إلخ- على موقع

ري ميزوساوا، قالت إنّه على الأرجح الشّخص المنشود. فأمْلَت على الحفيد رسالةً قصيرةً باليابانيّة، وكلّفته بأن يرسلها بالبريد الإلكترونيّ.

من: يو تجيان

إلى: ري ميزوساوا/ جاك مايار.

الموضوع: من قِبل لِن يانفِن.

بتاريخ: ٢٩ أبريل ٢٠٠٤

مرحباً،

اسمي يو تجيان. أكتب إليك من طرف خالة أمّي لِن يانفِن التي لابدّ أنّك ما تزال تتذكّرها. هذه رسالةٌ توجّهها إليك من سرير مرضها في مستشفى شانغهاي.

كنتُ في طوكيو طالبةً في الهندسة الزّراعية بين سنتي ١٩٣٤ و١٩٣٨. التقيت بوالدك يو ميزوساوا، فاقترح عليّ الانضمام إلى فرقة موسيقيّة، بحيث نؤلّف، أنا وهو وصينيّين آخرَين، رباعيّاً وتريّاً. وما زلت أحتفظ عن تلك الفترة بذكرياتٍ لا تُنسى. سنة ١٩٣٨، ظهيرة يوم أحد، كنّا نتمرّن على رباعي وتريّ لشوبرت في قاعة دار الثقافة بشيبويا، وإذا بجماعة من الجنود أتت تعتقلُنا بوحشيّة. ولمّا استشعر والدك الخطرَ، من وقع الأحذية العسكرية، فقد خبّأك في الخزانة. يومها كنتَ أنت غارقاً في

قراءة كتابٍ لا أذكر عنوانَه، بينما نحن مستغرقون في التمرّن. إن كنتَ ابنَ يو ميزوساوا، فلا بدّ أن تتذكّر ذلك.

إن كانت الأسطر التي قرأتَها تذكّرُك بشيءٍ، فسيسعدني أن أتلقّى أخبارَك.

في انتظار تلقّي خبر مفرح منك.

لِن يانفِن.

ردّ ري فوراً على الرّسالة الصينيّة، مؤكّداً للفتى الصينيّ أنّه هو بالفعل الصبيّ الذي كان مستغرقاً في قراءة كتابٍ عنوانُه **قُل لي كيف ستعيش**، بينما الرّباعي الوتري الذي يضمّ ضمن أعضائه أباه، يتمرّنُ على العزف. وبعدها بثلاثة أيّامٍ، وصلته على الإيميل رسالةٌ ثانية من عند لِن يانفن.

من: يو تجيان

إلى: ري ميزوساوا/ جاك مايار.

الموضوع: أنا سعيدةٌ جدّاً

بتاريخ: ٢ مايو ٢٠٠٤

عزيزي ري،

أنا سعيدة جداً لتواصلنا، ولا تتخيّل مقدار سعادتي! بوركت الإنترنت!

عمري الآن اثنان وتسعون عاماً، وأعيش آخر أيّامي في مستشفى شانغهاي. الحقّ أنّي مريضة؛ لم يبقَ لي قطعاً سوى أشهر قليلة أعيشُها...

إن كنت كتبتُ لك، عن طريق حفيد أختي الذي درس اليابانيّة هنا في الجامعة، والذي فضلاً عن ذلك يتقن تقنيات الاتّصال، فإنّما لرغبتي في أن ألتقيك، فأُعطيكَ تذكارين خلّفَهُما والدُك. ونظراً لمرضي، فأنا لا أستطيع المجيء للقائك. فهل تستطيع القدوم للقائي في شانغهاي؟ فإن لم تستطع سأرسل لك الشّيئين بالبريد.

انتظر ردّك بفارغ الصّبر.

لِن يانفن.

عجَّل ري بحجز تذكرة طائرةٍ وغرفة في فندق بشانغهاي. ثمّ كتب ردّاً إلى لِن يانفن يعلمُها بسفره إلى الصّين بعد أسبوعٍ من رسالته تلك.

٣

حكى ري للعجوز الصينيّة ما عاشه يوم الأحد المذكور، حتّى هبط عليه اللّيل، بعد اختفاء أبيه وأصدقائه الموسيقيّين: حَلقة الملازم كوروكامي الذي مدّ إليه الكمان المحطّم، ولقاءَه الغريب مع كلب الشّيبا، فقدومَ صديق والده الفرنسيّ، فيليب، وكيف وجده نائماً أمام المنزل، تحميه حرارة الكلب الذي تسلل بين صدره وقدميه المثنيّتين...

مستلقيةً على سريرها، وقد عادت إلى الوضع الأفقيّ، سألت يانفن رِي عمّا إذا كان الصحفيّ الفرنسيّ هو من ساعده...

- نعم، في ذلك اليوم، لم أستطع دخول البيت لأنّ المفتاح لم يكن معي. حكيت لفيليب ما حدث بعد رحيله. بقينا في الظّلام مدّةً، ثمّ ارتأى فيليب أنّ الأجدى أن يأخذني عنده بدلاً من أن ننتظر عودة أبي غير الأكيدة. وقد آواني فيليب في بيته مدّةً. وأظنُّ أنّه فعل كلّ ما في وسعه لمعرفة مصير أبي.

- أخبرك إذن بأنّ والدك اعتقلتهُ الشّرطةُ العسكريّة...

- نعم... لكنّني أظنُّ أنّه لم يخبرني ممّا عرفَ إلّا قليلاً...

- طبيعيّ، فقد كنت صغيراً جداً... كم كان عمرك؟

- أحد عشر عاماً.

- لقد أراد أن يحميك من صدمةٍ نفسيّة كبيرة...

- حين آيس من عودة أبي، قرّر أن يتبنّاني، علماً بأنّني صرت يتيماً منذوراً لأقصى درجات الوحدة... وفي سياق الحرب التي كانت تحوّل اليابانَ إلى وحشٍ لا يمكن السّيطرة عليه، قرّر فيليب وزوجته العودة إلى فرنسا، بعد أسابيع من ذاك الأحد.

- كان لزاماً عليهما ذلك... آه، لو علم يو بذلك...

- نعم، لا بدّ أنّ القلق كان يقتله حيال مصيري...

مسحت العجوز طريحة الفراش، بمنديل قطن أبيض، الدّموع المنهمرة على خدّيها... وانتظر الزّائر الفرنسيّ لحظاتٍ قبل أن يواصل خيط سرده.

- على أيّ، تلك كانت ملابسات عيشي في فرنسي، طفلاً متبنّى من طرف فيليب وإيزابيل مايار...

حكى ري للمرأة بعضاً من ذكريات طفولته الفرنسيّة.

وكانت يانفن تنصت إلى ري، وهي تهزّ رأسها بين الفينة

والأخرى، ويدها ما تزال بين يديه. ومن حين إلى آخر كانت تعبّ نفساً كبيراً كأنّما تخشى أن تختنق.

ثمّ صمت ري.

صمتٌ طويلٌ وعميقٌ غَشِي الشّيخَ القادمَ من مكانٍ قصيٍّ، والعجوز الهرمة، في ضربٍ من الاتّصال الكثيف الذي يملأ هذا وتلك تأثّراً وصدمةً من التنامي غير المتوقّع لمصيريهما وحياتيهما المتجاوبتين.

- ثمّ صرتَ صانع كمنجات...

- نعم. بعد محاولاتٍ لتلمّس طريقي، سرعان ما اتّجهتُ إلى صناعة الكمنجات لأنّني أردت ترميم كمان والدي. لقد حفظته بقربي دائماً، وهو في شبه حالة الموت، كأنّه جثّةٌ تتحلّل. تكوّنتُ بدايةً في ميركور، ثمّ منها إلى كريمونة... صارت صناعة الكمانات شغفي الوحيد...

أغمضت يانفِن عينيها، وغطّت وجهها بيدها اليسرى.

قُرع الباب. دخل طبيبٌ في الخمسين من عمره تقريباً، تصاحبُه ممرضّةٌ (ثانيةٌ غير تلك التي كانت تقيس ضغط المريضة). حيّا الطّبيبُ ري بانحناءةٍ من جسده، ثمّ دنا من المريضة وأمسك يدها اليسرى ليقيس نبضها. وظلّ يحادثها في مرح بصوتٍ قويٍّ رنّان، في حين تجيبه هي بصوتٍ واهنٍ بالكاد يبين. ولم يكن ري يفهم شيئاً ممّا يُقال. لكنّه أدرك في دماثة الطّبيب وشدّة لباقته رغبةً في أن

يسلي مريضته المحكومة بالموت. شدّ الطّبيب بيديه الغليظتين على يد يانفن، وحيّا الزّائر بهزّةٍ من رأسِه، ثمّ انصرف وهو يملي على الممرّضة كلماتٍ دوّنتها بسرعةٍ، كأنّها خبيرة تلخيصٍ، في ورقةٍ مثبّتةٍ على لوحٍ شابكٍ يتدلّى من رقبتها.

قال ري للممرّضة بصوتٍ خفيض:

– Excuse me, can I still stay here? I wouldn't disturb her.

أجابته المرأة ذات البلوزة البيضاء بفرنسية تكاد تكون طبيعيّة، وهي ترسم على وجهها بشائر ابتسامةٍ: – يس... تستطيع البقاء. لا بل إنّ في بقائك هنا، والحديث إليها، نفعاً لها! هذا ما نظنّه. لقد حكت لنا شيئاً من قصّتها... وقصّتك أنت أيضاً...

تفاجأ الزائر الأجنبيّ من هذا الاستعمال المباغتِ للّغة الفرنسيّة:

– تتحدّثين الفرنسيّة جيّداً!

– لقد درست الفرنسيّة في الجامعة؛ ثمّ تلقّيت تكويناً في فرنسا، مدّةَ سنة... في تولوز. وأحتفظ بذكريات جميلة عن تلك الفترة...

– رائع!

– إن كان لديك أدنى سؤال، تعال إليّ في غرفة العلاجات.

بالكاد وجد ري الوقت ليشكرها ببساطة «شكراً»، قبل أن تختفي في الرّواق. التفت إلى يانفن. كانت تبدو مريضة. غادر ري الغرفة على أطراف أصابعه، متعهّداً لنفسه أن يعود بعد نصف ساعة.

٤

حين فتح ري الباب على استحياءٍ كانت يانفن ما تزال نائمةً. جلس صانع الكمنجات على الكرسيّ بجانبها من غير أن يحدث أيّ ضجيج. أخذ يتأمّل العجوز الرّاقدة. تفحّص وجهها الذي غزته التّجاعيد، وفمها الموارب، وخدّيها الشاحبين الغائرين. فتذكّر الرّعشة التي استولت عليه، ذاك الأحد، حين رأى جمال وجهها المبهر، ورشاقة جسدها النّحيل. خطر بباله أنّ تلك كانت أوّل مرّة يشعر فيها بقلبه يوجف من تأثير قوّة غامضة تصعد من أحشائه...

- اعذرني لقد نمت...

- لا داعي للاعتذار... لقد أسعدني أن أراك نائمة مرتاحة...

ألقت يافن نظرةً على المنبّه الموضوع بجانب سريرها:

- لم أنم كثيراً...

- لا، بالكاد نصف ساعة.

- لا ينبغي أن أنام أثناء النّهار... ذلك يحرمني من النّوم نوماً

منتظماً. لكنّي... في الواقع، لم أنم نوماً منتظماً منذ زمنٍ بعيدٍ جداً....

- صحيح؟

- ري، ينبغي أن أخبرك بما حدث عقب فراقك النهائيّ مع والد.

- نعم، إن لم يكن الأمر يتعبُك...

- كلّا، لا يتعبني. بل إنّي سعيدة بإمكان الحديث إليك. لقد تلطّفتَ وقمتَ بهذا السّفر الطّويل، لذا أنا مدينةٌ لك بسرد ما تجهله. وينبغي في المقام الأوّل أن أسلّمك محتوى كيس النّسيج المخبوء في الخزانة.

طلبت يانفن من ابن يو ميزوساوا أن يُخرج الكيس ويفتحه.

- في الكيس كتابٌ وكنزة.

- كتابٌ وكنزة؟

- نعم، لكن بدءاً يجب أن أحكي لك ما وقع عقب المشهد الذي كنتَ شاهداً عليه من مخبئك في الخزانة.

- بعد مقطوعة باخ التي عزفها والدي...

- نعم... **الغافوتة على نمط الرُّندة** التي عزفها عزفاً رائعاً... لقد أذهلنا جميعاً... بما فينا، على ما أظنّ، العسكريّ الذي طلب منه عزف شيء...

- كانت المعزوفة إذن بالفعل **الغافوتة على نمط الرُّندة**...

- نعم، أتذكّر ذلك كأنّما حدث بالأمس...

حملقت يانفن في الفراغ. من غير أن يعلّق بكلمة، وضع ري يده اليمنى على يد المريضة المتجعّدة، المُرخاة على الغطاء كأنّها ورقةٌ ميّتةٌ أغفلتِ الرّيحُ كنسَها. كانت اليد باردةً.

- اقتادنا الجنود إلى معتقل. بعد أربعٍ وعشرين ساعةٍ أُطلق سراح الصّديقين الصّينيّين كانغ وتشِنغ... لا شكّ أنّ كونهما طالبين ممنوحَين قد شفع لهما. أمّا أنا وأبوك فلم يشفع لنا شيء. أظنّ أنّ ثمّة تفصيلاً تجهله. وهو أنّ الجنود كانوا يحسبونني زوجة أبيك.

- حقّاً؟ وكيف؟

- حين شرع الجنود في، تحديد هويّة كلّ واحدٍ منّا، أخبرهم أبوك، بدافع غريزيّ، أنّني زوجته، وأنّ اسمي أيكو... كان بالتّأكيد يسعى إلى حمايتي...

- الحقّ أنّني كنت أجهل ذلك.

- في تلك الأزمنة كان يُنظر إلى الصّينيّين بعين الحذر، إن لم أقل بعين الاحتقار.

- أتساءل ما إذا كان الوضع تغيّر... المهم، ما كان مصير صديقيك الصّينيّين؟ هل ظللتِ على علاقةٍ بهما؟

- كلّا، لقد تقطّعت بيننا السّبلُ. وحين سُمح لي أخيراً بأن أغادر المعتقل، هرعت إلى المركز الثّقافيّ أستعيد كماني الأوسطَ من المخزن. فلم أجد لآلتَيهما أثراً. وكذلك اختفى كمان والدك المكسور. وعلى الرّغم من خوفي، فتحت الخزانة... وكما تعلم، لم أجدكَ فيها... فداخلني الاطمئنانُ والقلق في آن...: «أين هو؟ ماذا حلّ به؟».

رفعت يانفن عينيها، وزفرت كأنّما تحتجّ في صمتٍ على القدر.

- يُحتمل أنّ شِنغ، عازف التشيلو قد بقي هنا، وعاش مع زوجته اليابانيّة... أمّا كانغ، عازف الكمان الثّاني، فقد انقطعت عنّي أخباره...

- المهمّ أنّهم أخلوا سبيلك بعد مدّة؟

- نعم، لقد قضيت في المعتقل يومين وليلتين. لقد أبقوني مدّة أطولَ، قطعاً لأنّني أصررت على تأدية دور «الزّوجة».

- هل حقّقوا معك تحقيقاً قانونياً...

- خضعت لتحقيقين مشدّدين... لكنّهم أخلوا سبيلي بعد ثمانٍ وأربعين ساعة.

- كنتِ معتقلة معي أبي في نفس...؟

- كلّا، لقد فرّقوا بيننا... لم أكن أراه. وبعد إطلاق سراحي، ظللت أتردّد على مركز الشّرطة، كلّ يومٍ، للسؤال عن أبيك، مستغلّةً لقب «الزّوجة». لكنّهم لم يسمحوا لي برؤيته على

الفور... بدعوى أنّه معتقل لدواعٍ تمسّ قانون حماية الأمن العامّ.

- آه، ذلك القانون الشّيطانيّ الذي باسمِه اعتُقل وعذّبَ كمٌّ هائلٌ من النّاس...

- نعم، هو... لم أستطع لقاءَه إلّا بعد أربعة أيّامٍ أو خمسة، وكانت بيّنةٍ عليه آثارُ الضّرب، وسوء المعاملة، والتنكيل. لقد هزل وتداعى من التّعب. صار كالشّبح... وأذكر أنّه قال لي...

انحبس الكلامُ في حلق يانفن من الانفعال. فتوقّفت لحظاتٍ عديدة، ثمّ واصلت الدّموع تخنق حنجرتها:

- قال لي إنّ أفراداً من الشّرطة العسكرية قد دخلوا بيته، وصادروا منه أشياءً، فوجدوا بينها الكثير من الكتب الخطيرة، وإنّهم يتّهمونه بتبنّي أفكار شيوعيّة، ونشرها بين غيره... لم يكن وقت المقابلة المسموح به يتجاوز عشرين دقيقة، وقد مرّ في لمح البصر. وبالطّبع كان مبلغ همِّه مصيرَكَ. كان يتساءلُ عمّا حلّ بك. كان يتخيّل كلّ السيناريوهات الممكنة... ويقاسي أقسى العذابات... وأنا للأسف، لا أملك له تطميناً.

- ذلك عذابٌ آخر انضاف إلى عذاباته... أقصد جهلَه بمصيري.

- بالضّبط!

خفض ري رأسَه. ثمّ أمسكه بين يديه، كأنّما يجاهد لتحمّل ألمٍ حادٍّ يقطّع معدته. استقرّ في المكان صمتٌ مظلم. ثمّ سمع همهمةً من صوت العجوز الأجشّ:

- ... في نهاية المطاف، نصحني والدك، للطفِه، بأن أعود إلى الصّين من غير إبطاءٍ، قال لي: «على أيّ حالٍ، هذا أفضل لك، وأدعى للاطمئنان». كان وجهه قد تغيّر، أهلكه الحزنُ والألم... لا أستطيع نسيانَه... لم أنسَه قطّ...

- وبعد تلك المحنة، هل تمكّنتِ من رؤيته؟

- كلّا، كانت تلك المرّة الأولى والأخيرة...

غمغم الشّيخُ بصوتٍ هامسٍ: - لم يرَه إذن بعدها أحد...

- كرّرتُ الزّيارة للمعتقل. لكن لم يكن لقاؤه ممكناً. في كلّ مرّةٍ كان طلبي يُرفض. ثمّ ذات يومٍ صادفتُ الرّجل الذي كان قد طلب من يو أن يعزفَ مقطوعةً، كي يؤكّد أنّه بالفعل موسيقيّ، ويبدّد لدى الجنود كلَّ شكّ... ذاك الجنديّ لم يكن مثل الآخرين. كان لبقاً وودوداً، قياساً إلى كونه عسكرياً... أفهمني أنّ عليّ، من الآن، التخلّي عن فكرة مقابلة زوجي... قال لي خافضاً رأسَه: «لقد رحل بعيداً، ولن يعود أبداً...» وكان آسفاً لاضطراره إبلاغي الخبر بتلك القسوة. وفي تلك اللّحظة خلت أنّني لمحت تشنّجاً عصبيّاً يعتري وجهه من أسفله إلى أعلاه.

حكّى إذّاك ري للمرأة الصّينيّة خبر زيارته إلى ميدوري يامازاكي السّنة الماضية. تأثّرت يانفِن غاية التأثّر من قصّة اللّقاء غير المتوقّع بين الصّغير ري، الذي صار صانع كمنجاتٍ، وحفيدة الملازم التي صارت عازفة كمانٍ. فلمّا اجتازت الانفعال الأوّلَ، استعادت جأشها، وايقظت السّمعَ لمتابعة حكاية اليوم الذي قضاه ري رفقة ميدوري وأمّها.

فلمّا فرغ ري من سرده، همست زافرةً: - هو أيضاً تعذّب. لم يكن الجيشُ مكانَه...

قُرع البابُ. دخلت الممرّضة الفرونكوفونيّة رفقة امرأتين أُخريَين في بلوزتين بيضاوين.

همست الممرّضة لري: - جئنا نعتني بنظافتها، هل تستطيع أن تخرج برهةً؟ سيستغرق منّا الأمر ربع ساعة.

- حسناً.

ارتسمت على وجه الممرّضة ابتسامة خفيّة. خرج ري من الغرفة بعد أن قال ليانفن إنّه سيغيب دقائق.

- ستعود، لأنّنا لم ننهِ حديثنا...

- طبعاً، طبعاً.

٥

- كان الكهان محطّماً بالكامل. لقد سحقه الجنديُّ الحقود بضربتين من حذائه. واستطعتَ مع ذلك أن ترمّمه؟

- نعم، استغرق منّي ترميمه وقتاً طويلاً.

- كم استغرق منك؟

- انطلقت في مغامرتي المجنونة، خلال السّنة الأخيرة من إقامتي في كريمونة، وتمَّ ذلك تحت رعاية معلّمي وعنايته. كان ذلك إذن سنة ١٠٧٠، وفرغت من الترميم سنة ١٩٨٢. استغرق الأمر إذن اثنتا عشرة سنةً. أتذّكر ذلك جيّداً، لأنّها السّنة التي انتقلت فيها للعيش مع رفيقتي عمري صانعة الأقواس.

- آه، زوجتك إذن صانعة أقواس؟!

- نعم، لسنا متزوّجين لكنّنا نُعتبر كذلك. لقد التقيتها في فترةٍ مبكّرةٍ من عمري، في بداية تكويني بميركور. وميركور

مدينة صغيرةٌ جداً، لكنّ صيتَها في صناعة الآلات الوتريّة ذائعٌ منذ القرن الثامن عشر، يضاهي صيت كريمونة في إيطاليا... كنّا قد اتّفقنا على أن ننتقل للعيش معاً، ما إن أفرغ من ترميم كمان أبي... وحين تمّ الأمر كنت في الخامسة والخمسين من عمري.

- وزوجتك... أقصد رفيقتك... أقصد صاحبتك... لا أعرف الكلمة المناسبة باليابانيّة...

- إنّها تصغرني سنّاً بخمسة أعوام. اسمُها هيلين. ها قد صرت تعرفين كلَّ شيء!

ابتسمت لِن يافنن لأوّل مرّةٍ منذ أن زارها ري.

- أنا سعيدة إذ عرفتُ أنّ ثمّة من يؤنسك في حياتك. ليست الحياة بالطّريق السّهل... أولى أن تخوضها إلى جانب شخصٍ ما، على أن تخوضها بمفردك كما فعلتُ أنا...

سأل ري يانفِن التي تضرّجت بالحمرة فجأة:

- وأنت...

- ... أنا عشت بمفردي...

رانت عليهما لحظة صمتٍ، بدت فيها يانفن غائبة، غارقةً في خواطرها. تخيّلَ ري ما كان يستغرق المرأة المسنّة في صمتٍ حالمٍ.

- هلّا أخرجتَ الكنزة والكتاب؟

كانت الكنزة، الورديّة الباهتة، مطويّة بعناية في كيس بلاستيك شفّاف كأنّها قطعة ملابس جديدة معلّقة في رفّ متجر. أمّا الكتاب فكان مغلّفاً بورق كرافت يحميه ويحجب عنوانَه.

- إنّ هذه الكنزة كانت لأمّك التي توفيت في طفولتك المبكّرة.

- كنت في الثالثة من عمري، على ما أظنّ...

- ذات يومٍ بينما نتمرّن في بيتكم، إذ كنّا في ابتداء عزفنا نتمرّن في بيتكم، قبل أن يضيق بنا، فاخترنا التمرّن في دار الثقافة... الخلاصة، شعرت بالبرد، فأعارني والدك كنزة والدتك. فلمّا أتممنا العزفَ، أردتُ إرجاع الكنزة قبل أن أنصرف. فقال لي والدك: «احتفظي بها، إنّ الجوّ بارد. وأرجعيها متى شئت. تُدركين أنّني ما عدتُ أحتاجها...» وفي النّهاية، احتفظت بها، وارتديتها أمامه غير ما مرّة. أشعر بالأسف لأنّي استغللتُ لطفَه...

- كلّا، لا أظن ذلك. لا بل بالعكس، أظنّه كان سعيداً وهو يراك ترتدين هذه الكنزة.

خال ري وجه يانفن الشّاحب يتورّد تورّداً خفيفاً.

قال وهو يتناول الكتاب: - وهذا الكتاب؟

- لمّا اعتُقلنا، فقد تمّ اقتيادُنا مباشرةً إلى المعتقل. وكان يو يحمل هذا الكتاب الصّغير في جيب سترته الدّاخليّ. فلمّا وصلنا المعتقل، استغلّ اللّحظة التي تفرّق فيها الجنود لكي يسلّمني

الكتاب في غفلةٍ منهم. وأنا احتفظتُ به تحت تنّورتي، أو بالأحرى في تُبّاني، طيلة فترة احتجازي. فلم يضعوا عليه أيديهم... أيّ رعبٍ كنت أعيشه!

فتح ري الكتاب الصّغير. انكشف العنوان في الصّفحة الأولى: **الباخرة-المصنع**. إنّها روايةٌ شهيرةٌ لتاكيجي كوباياشي نُشرت سنة ١٩٢٩، تصف ظروف الحياة الأشبه بالعبودية التي يعيشها عمّالٌ على متن باخرةٍ تصطاد السّلطعون في بحر أوخوتسك، بين روسيا واليابان. لم يقرأ ري رواية **الباخرة-المصنع**، لكنّه سمع عن حياة تاكيجي كوباياشي، المؤلّف المشهور بأدبه المدافع عن البروليتاريا، الذي توفي سنة ١٩٣٣ وسنّه لم يتجاوز التّاسعة والعشرين، بسبب تحقيقٍ بوليسيّ عنيف، حصّةِ تعذيب وحشيّة.

- لم يسبق لي أن قرأت هذه الرّواية، مع أنّها شهيرة...
- أمّا أنا فقرأتُها، مرّاتٍ لا تُحصى... أتساءلُ عمّا إذا كان مصير والدك شبيهاً بمصير تاكيجي كوباياشي...

أطلقت يانفن تنهيدةً عميقة، ثمّ غرقت في صمتٍ متأمِّل.

٦

- كان أبوك يحبُّ القراءة. وبعض الكتب في مكتبته كان خطيراً مميتاً...

- لقد عشتُما معاً فترةً عصيبةً... فترة اغتيال الحريّات، حريّة الفكر، وحريّة التعبير، وحريّة الاعتقاد...

- أنت أيضاً كنت تحبّ القراءة. أذكر أنّك، في ذلك اليوم، كنتَ تمسك في يدك كتاباً، وكان يستحيل انتزاعه منك...

- نعم، هل تذكرين؟

- نعم، ظلّت الذّكرى حيّةً في ذاكرتي.

- كان كتاباً لغنزابورو يوشينو، عنوانُه «**قُل لي كيف ستعيش**»، نُشر سنة ١٩٣٧... أي سنةً قبل مأساتنا... أبي هو من أهداني الكتاب. لقد قرأه ما إن صدرَ، وأثّر فيه غاية التأثير. على أيّ حالٍ، لقد حدّثني عنه بحماسة. وقد رافقني الكتابُ طيلة

مراهقتي. احتفظت بالنّسخة الأصلية، وظللت أقرأ فيها بانتظامٍ. أتعرفين الكتاب؟

- لا. حين عرفت أنّ يو لن يعود أبداً، قررت ترك اليابان. ومنذ تلك اللّحظة انفصمت الرّوابط بيني وبين ذاك البلد...

- إنّه كتابٌ رائع. في عزّ مرحلة الجنون الفاشيّ والحمق العسكريّ والقوميّ المتطرّف، جرُؤ يوشينو على أن يكتب، للنّاشئة اليابانيّة، كتاباً يدعو إلى استعمال العقل والدّفاع عن سموّ أخلاقيات الصداقة بين الأقران، في مواجهة ظلم الكبارِ والمهيمنين. أظنُّ أنّ والدي كان يروم أن يصنع منّي شاباً قادراً على أن يحفظ حصافة عقله في كلّ الظّروف، وألّا ينجرف مع الجنون الجماعيّ، وأن يتمرّد ضدّ كلّ أشكال الانحراف...

إنّ ري ميزوساوا الذي فُصل بينه وبين والده، ظهيرة يوم الأحد ٦ نوفمبر ١٩٣٨، فصلاً متعسّفاً، من غير أيّ تمهيد، ومن دون أن يستعدّ للفراق نفسياً، قد فقد أباه إلى الأبد، لكنّه ما كفّ البتّة عن التفكير في الغائب، في الرّاحل، في المختفي، أوّلاً عبر الكمان الذي تهشّم، ثمّ عبر كتاب غنزابورو يوشينو. واليومَ، بفضل صبر الصّديقة الصينيّة ووفائها الرّاسخ، انضاف إلى قطع الذّكرى كلّ من الكنزة الورديّة، **والباخرة-المصنع**. لقد جعل ري من الكمان المحطّم مشروع حياته. فلمّا أتمّ المشروعَ، ورمّم كمانَ نيكولا فرانسوا

فوييوم، راودته بالطّبع فكرة ترجمة كتاب يوشينو الضّخم، إذ كان يحسب أنّه يسمع، من خلال كتاب **قُل لي كيف تعيش**، صوت والده يختلط بصوت المؤلّف. وقد بدأ الترجمة منذ سنواتٍ. يستيقظ باكراً، في الخامسة صباحاً، في صمت الفجر. وبعد فطورٍ سريع، قوامه خبز محمّصٌ بالزّبدة وقهوة، يجلس إلى منضدته، محاطاً بأدوات حرفته، والسّحاجات، وعددٍ من الآلات في طور الإنجاز، محاولاً أن يستعيد في الفرنسية الصّحوة الفكرية والتطوّر الجوانيّ لتلميذ إعدادي يابانيّ، مفتونٍ بكلمات يوشينو. ولم يكن مستعجلاً. كان يتقدّم خطوةً خطوة، بالكاد ينقل عشرة أسطرٍ في اليوم، كلمة كلمة، جملة جملة، فقرة فقرة. وفي الساعة الحادية عشرة، يتوقّف ليستريح، ثمّ يرتدي مأزر الحرفة الكحليّ.

- إنّما أترجم الكتاب لنفسي، بلا أدنى نيّة في نشره... أتوقّف عند تفاصيل كلّ صفحة، هكذا أظنُّ أنّني أسمع صوت أبي على نحوٍ أفضل.

٧

مالت الشّمس إلى المغيب. الشّجرتان اللّتان تُريان من نافذة الغرفة، شجرة الكرز والقيقب، المتباعدتين بنحو عشرين متراً، بدأتا تتلفّعان، شيئاً فشيئاً، بعباءة اللّيل.

- لقد تأخّر الوقت يا سيّدة لِن. أتعبتُك بما يكفي طيلة مساء اليوم. ينبغي أن أتركك...

- شكراً جزيلاً لأنّك أتيت حتّى هنا. أنا حقاً سعيدة لأني رأيتك، وسمعتك، وعرفت قصّة حياتك، ومسارك المهنيّ صانعَ كمنجات، ولأنّي أعطيتك أمانتك... إنّ رحيل يو جرحٌ لا يندمل بالنّسبة إليّ، لكنّه هو، في الآن نفسه، ما ساعدني لأعيش. واليوم أنا سعيدة لأنّي عثرت عليك. لقاؤك راحةٌ ودواءٌ لم أتوقّعه. شكراً، شكراً كثيراً. أبداً لن أوفيك الشّكرَ الكافي...

- لنبقَ على تواصل. سأواصل الكتابة لحفيد أختك، أتقصّى منه أخبارك.

- طبعاً، يسعدني ذلك سعادةً لا تتخيّلُ مقدارَها...

تناول ري مجدّداً يد يانفن اليُمنى، الباردة المرتجفة، بين يديه القويّتين، يدي الحرفيّ. كانت واهنة.

تمتمت يانفن: - يداك دافئتان!

كذلك ظلّ الشّيخ والعجوز الهرمة يتبادلان النّظر طويلاً. ثمّ خفض ري رأسَه، بينما التفتت يانفن بعينيها إلى النّافذة التي أتت ممرّضةٌ تسدلُ ستائرها. لحظاتٍ بعد ذلك، تبادلا النّظر مجدّداً. ثمّ أخيراً توادعا. التفت الشّيخ إلى العجوز قبل أن يفتح باب الغرفة. أغلقه خلفه ببطءٍ، ببطءٍ شديد. تشنّج فمُ المريضة المزرقُّ، بينما وجهها الشّاحبُ يرسمُ للزّائر آخر ابتسامة. يدُ الصّانع اليسرى المرفوعة باستحياء تردُّ التحيّة ليد يانفن اليمنى المتأرجحة في تراخٍ كأنّها بندول ساعةٍ عتيقة.

سار ري في البهو الخافت الإضاءة، وكان يحمل على ظهره حقيبته التي تحوي، من جملة ما تحويه، كنزة أمّه الورديّة التي ارتدتها المرأةُ الصّينيّة وحفظتها لما يفوق نصف قرنٍ من الزّمان، وكذلك نسخة قديمة جداً من رواية الباخرة-المصنع لتاكيجي كوباياشي التي كانت ملكاً لأبيه، وحفظتها الصّديقة الصّينيّة، التي كانت زوجةً مؤقّتةً، عابرةً، خياليّة، وهميّة، زوجةً حُلماً، لأبيه.

٨

ما إن عاد ري إلى باريس، حتّى سارع إلى الكتابة إلى ميدوري يخبرها تفاصيل لقائه غير المتوقّع مع لِن يانفن. كان يريد أن يشاطرها الجزء الذي تجهله من قصّة امرأة السادس من نوفمبر ١٩٣٨، أي الجزء المتعلّق بمصير والده بعد الاعتقال.

من: 水澤礼/ ري ميزوساوا/ جاك مايار.

إلى: ميدوري يامازاكي

الموضوع: لقاءٌ بالسّيدة لِن يانفن

بتاريخ: ١٧ مايو ٢٠٠٤

عزيزتي ميدوري،

أتمنّى أن تكوني بخير. تجدين طيّاً رسالة في صيغة وورد، كتبتها لك بعد لقائي غير المتوقّع مع السيّدة لِن يانفن عازفة الألتو ضمن الرّباعي الوتريّ الذي كان يعزف **روزاموند** يوم ٦ نوفمبر ١٩٣٨.

كتبت لك مطوّلاً، ولا أنتظر منك جواباً. إنّما أردت فقط أن أكمل قصّتي، وقصّة كمان نيكولا فرانسوا فوبيوم الذي تعرفينها، بقصّة أبي التي حكتها لي السيّدة لِن يانفن.

مساراً موفّقاً.

مودّتي.

礼澤水/ ري ميزوساوا/ جاك مايار.

٩

مرّت أشهر في صمتٍ أخرس، لا يقطعه في الغالب غير صوت **موسيقى الغُرف** الهادئة. وذات يومٍ ممطرٍ من أيام نوفمبر، بينما ري منهمك في ضبط كمانٍ لجان باتيست فوييوم، عهدت به إليه عازفة كمانٍ أمريكيّة شهيرة، وقالت إنّه كان فيما مضى ملكاً للعازف التشيكي جوزف تزوك. ومكبّرا الصّوت المعلّقان في السّقف يطلقان، في خفوت، **الحركة الثانية من الرّباعي الوتريّ روزاموند** لشوبرت. عدّلَ فرس الكمان التي كانت مائلة ميلاً لا يكاد يلحظ؛ حرص على أن يجعلها في المنتصف تماماً، بين فتحتَيّ التّصويت؛ وبحذر شديد حرّك روح الكمان بضع عشراتٍ من الميلمتر؛ وكانت كلّ تلك التّدابير ضروريّة لكي تنتقل دبدبات الأوتار، بدون أن يعوقها عائقٌ، من الفرس إلى الرّوح، ومن الرّوح إلى الصّدر، ثمّ إلى سائر صندوق صوت الآلة.

تناول قوساً مضبوطاً ضبطاً مثالياً، من الدّرج الأوّل في أثاثٍ قديمٍ موضوعٍ أسفل صفّ آلات الكمان والألتو.

وفي تلك اللّحظة سُمعت إشارةٌ صوتيةٌ تشير إلى وصول رسالةٍ على البريد الإلكترونيّ. عزف على الكمان أول أوزان **الغافوتة على نمط الرُّندة**. ثمّ وضع الآلة، بأسارير راضية، على المنضدة الكبيرة التي ترسم الحدود بين المشغل والصّالون الصّغير.

قصد حاسوبه الموضوع أقصى المنضدة. فتح الرّسائل. وكانت رسالة من ميدوري يامازاكي.

من: ميدوري يامازاكي

إلى: 水澤礼/ ري ميزوساوا/ جاك مايار

الموضوع: حفل في باريس

بتاريخ: ١٩ نوفمبر ٢٠٠٤

عزيزي ميزوساوا سان،

اعذُرني على انقطاع أخباري عنك مدّةً طويلة. منذ لقائنا شهرَ مايو ٢٠٠٣، مرّ وقتٌ طويل. الوقت يمرّ بسرعةٍ مذهلة!

قمت بجولات فنيّة في مناطق عديدة من العالم، خلال السّنة الماضية. آخرها كانت في أوروبا الشّرقيّة شهر ديسمبر. وبداية هذه السّنة، مرضتُ، ولا بدّ أنّ سبب مرضي، ما تراكم عليّ من تعبٍ بطول الجولات. فأخذتُ عطلة ستّة أشهر، بنصيحةٍ من طبيبي. ولم أسترجع إيقاعي العادي، شيئاً فشيئاً، إلّا ابتداءً من شهر سبتمبر. والآن استعدتُ كامل العافية.

أودّ أن أشكرك على الرّسالة التي بعثت بها إليّ، بعد لقائك مع السّيدة لِن يانفن. لقد حصلتَ الآن على القطعة النّاقصة، واكتملت

عندكَ وقائع مأساة ٦ نوفمبر ١٩٣٨. وأنا سعيدةٌ إذ أشركتني معك في هذه الرؤية الشّاملة، التي ظهر فيها مرّةً أخرى اسم جدّي.

أكتب إليك اليوم لأخبرك بأنّني سأكون في باريس في فصل الرّبيع القادم، وسوف أقدّم حفلاً في قاعة بليل. أتمنّى أن تسعفك الفرصة للحضور أنت وزوجتك. ستصلك دعوةٌ رسميّة من مدير أعمالي. سأسعد بلقائك في تلك المناسبة. بالتّأكيد ستحضر معي أمّي الحفل.

خالص مودّتي،

ميدوري يامازاكي

ردّ ري على رسالة ميدوري فوراً، فشكرها على رسالتها وعلى دعوته إلى حفلها الباريسيّ. وأكّد لها أنّه لن يفلّت حضور الحفل بصحبة زوجته. وأنّه يتخيّل نفسه من الآن في قاعة بليل. كيف يفلّت فرصة حضور مثل هذا الحفل مع هيلين؟ سيسعد قطعاً بأن يعرّفها إلى العازفة الشّابة! ثمّ، بعد الحفل، إن سمح وقتُها، فسيسعد بلقائها وأمّها!

هاتف هيلين يخبرُها بالدّعوة التي تلقّاها من عند ميدوري يامازاكي.

صاحت عجباً: - أيّ مصير عجيبٍ هو مصيرك! لو كان بالإمكان، لدعونا إلى هذا الحفل أيضاً أباكَ والملازمَ كوروكامي!

١٠

بسبب شيءٍ من التوتّر، وصل ري وهيلين إلى قاعة **بلِيِّل** قبل موعد العرض بمدّة طويلة. ولم يكن في البهو سوى حفنة من النّاس. بضع هيئات تتحرّك على غير هدى عبر السّراب النّاجم عن القيظ الخانق لنهارٍ صيفيّ. دنا منهما شبح.

- جاك! مرحباً...

- أوه، يا لها من مفاجأة! كيف الحال؟

- بخير، وأنت؟

- بخير. شكراً. قلت لنفسي إنّني قد ألتقيك اليوم هنا... يبدو أنّها عازفة رائعة... هل سبق أن سمعتها تعزف؟

- نعم. قليلاً...

- ثمّ، يشاع أنّها تعزف على أحد كماناتك.. أهذا صحيح؟

- من قال لك ذلك؟ كلّا، إنّها بالفعل مجرّد شائعة!... اعذرني ينبغي أن أتركك لتحيّةٍ شخص هناك.

- أوه، تفضّل. إلى اللّقاء! أراك قريباً!

زفر ري حانقاً، وهو يودّع زميله في الحرفة، الفضوليَّ والثّقيل. وسحب هيلين من ذراعها، لكي يلوذا معاً بعمودٍ. وكان يقول في نفسه وقد تفاقم حنقه: «ما أثقله! كأنّما يعيش على الشّائعات!» وشيئاً فشيئاً بدأ البهو يمتلئ بالبدلات السّوداء والفساتين متعدّدة الألوان، بل وحتّى ببعض الملابس غير الرّسميّة. سمعت هيلين خلف ظهرها صوت رجلٍ يصيح: «اطلبي البرنامج!».

ذهبت تحصل على البرنامج. وكما ذكرت رسالة الدّعوة الرّسمية التي توصّلا بها، فإنّ ميدوري يامازاكي ستعزف كونشيرتو ألبان بِرغ «**في ذكرى ملاك**». تذكّر صانعُ الكمنجات النّهار الذي قضاه في صحبة ميدوري وأمّها. فكّر في الملازم كوروكامي، الإله الأسود. فكّر في أبيه. لقد مرّ الزمنُ فجرف في طريقه كلّ شيء، جرفه إلى الأبد. لكنّ الملازم قد ترك أثراً من ظلّه بين الأحياء، وكذلك فعل يو ميزوساوا.

امتصّت الأبوابُ المتفرّجينَ. جلس ري وهيلين على مقعديهما في قاعة العرض، مقعدان في موقعٍ جيّدٍ للاستماع، على بعد عشرين متراً تقريباً من خشبة العرض.

١١

على خلاف الأعراف، بدأ العرض بالسيمفونية السّابعة لبيتهوفن، حتّى تُترك المكانةُ الشرفيّة لبِرغ. وكان ري يحبّ كثيراً تلك السمفونية، خاصّة في الصّيغة الأسطورية التي أدّاها بها المايسترو فورتفينغلر في برلين سنة ١٩٣٤: سيمفونيّة تعبرها من أقصاها إلى أقصاها طاقةٌ وحشيّة، وهجُ حياةٍ، حتّى في الحركة الثّانيّة التي تتّخذ سرعةً هادئةً، سرعةَ موكبٍ جنائزيّ؛ تبدو له موسيقى بيتهوفن كرغبةٍ هائلةٍ وراسخةٍ في إثبات الوجود. إنّ هذا الهروب الرّائع صوب الحياة، الهروب الذي ينتصر في نهاية المطاف على قلق الموت يتماشى بالتّأكيد مع مزاج ري الذي سوف ينقاد، أثناء الجزء الثاني من السّهرة، إلى موسيقى ألبان بِرغ بتوسّطِ حفيدةِ الملازم كوروكامي. أيُّ موسيقى ستخرج من التقاء أوتار كمانه الأربعة وفتيل قوس هيلين، إذ تعزفُ بهما يدا العازفة الشّابة التي تولّعت بالموسيقى بدافعٍ من **الإله الأسود؟**

بعد فاصلٍ طويل، لم يزد ري إلّا نفاذ صبرٍ، عاد يجلس على مقعده.

سألته هيلين: -أنت بخير؟

أجابها في وهن: - نعم.

لم تسمع هيلين سوى زفرةٍ قصيرةٍ بالكاد تُسمَع، كأنّما الكلمة الدّالة على الإثباتِ لم تُحدث أيّ اهتزاز في حباله الصّوتيّة. ثمّ أخيراً ظهرت ميدوري يامازاكي على الخشبة ممسكةً بيدها اليسرى كلّاً من قبضة الكمانِ والقوس المرفوعة باتّجاه الأعلى. اجتاح التّصفيق القاعة. أجابت الموسيقيّةُ بابتسامةٍ عذبةٍ ومشرقةٍ الاهتمام العامَّ المسلّطَ عليها، وتقدّمت إلى عازف الكمان المنفرد الأوّل، فصافحته، ثمّ استدارت نحو الجمهور فحيّته بانحناءةٍ عظيمةٍ. وكان قائد الأوركسترا قد انتحى بنفسه جانباً بينما تحيّي ميدوري الجمهور، فلّما انهَت التحيّةَ، تقدّمَ إلى المنصّة وانحنى للجمهور انحناءةً خفيفةً. ولّما وقف مقابلاً الموسيقيّين كفَّ التّصفيقُ بغتةً. ولم تكن ميدوري ترتدي، على عادة العازفات والمغنّيات، فستاناً، وإنّما ارتدت سترةً وسروالاً أسود داكناً، ممّا يشي برغبتها في أن تنصهر ضمن أفراد الأوركسترا. كان شعرها مقصوصاً قصّة نصف طويلة، وقد ربطته خلف رقبتها برباطٍ أحمر. كان ري يشعر بقلبه يخفق بعنفٍ، كأنّما يوشك قفصه الصّدري، في أيّ لحظةٍ، أن ينفجرَ لخفقانه. ولاحظت هيلين أنّ تنفّس رفيقها يتسارع تسارعاً غير طبيعيّ. فهمست له مرّةً أخرى «أنت بخير؟» وهي تمسك بيده. لم يجب ري هيلين، لكنّه شدّ على يدها.

رفع قائد الأوركسترا ذراعيه، ونظر إلى عازفة القيثار عند طرفه الأيسر قليلاً، وإلى عازفَي الكلارينيت أمامَه مباشرةً. بعد

صمتٍ مشدودٍ وممطوطٍ دامَ عدّة ثوانٍ، نزلت الذّراعان ببطءٍ، بينما تستعدُّ عازفة الكمان لأن تضع قوسها على الأوتار، لتعزف عليه في إيقاع شديد الهدوء ابتداءً من ثاني الأوزان المشكّلة للمادّة الصّوتية الافتتاحيّة لكونتشيرتو «**في ذكرى ملاك**». كانت النّوتات الأولى أشبه شيءٍ بالصّمت الذي يسبق بداية العزف، كأنّما عازفُ الآلة يبدأ بدوزنتها. أصابع يد ميدوري اليسرى لم تكن تلمس بعد الأوتار. انفراط الأوتار الفارغ كان يسنده انفراطُ آلَتَي الكلارينيت وآلة القيثار. كانت أصواتُ الكمان الطّبيعيّة هي ما يُسمَع. استولت على ري رجفةٌ داخليّة. ثمّ ما لبثت الموسيقى أن ركبت بحراً محيطاً من الأصوات المتنافرة التي تنبثق من بينها، بين الفينة والأخرى، انبثاقاً غير متوقّع، مثلَ فُرَجٍ في الغابة تداعبُها أولى أشعّة الشّمس الطّالعة، انفراطاتُ تآلفٍ، أو جملٌ لحنيّةٌ لا تمُجُّها الأذنُ التي اعتادت الموسيقى السّابقة على قطيعةِ طريقةِ **الإثني عشر نغمة**[1]. وكان ري وهيلين يعرفان كونتشرتو «**في ذكرى ملاك**». ويعرفان أنّ المؤلّف ألّفها بتأثيرٍ من صدمته بموت مانون غروبيوس -ابنة ألما ماهلر والمعماريّ والتر غروبيوس- موتاً مباغتاً وهي بعدُ في الثامنة عشرة من عمرها، بسبب شلل الأطفال. وإذ استمع ري إلى الحركة الأولى التي عزفتها ميدوري بعبقريّةٍ، شعر بأنّه شاهدٌ على الطّفولة الطّاهرة للمرحومة، بل وحتّى استطاع، عبر البياضات الصّوتية التي بدت له تعكس الصّراع الجوهريّ بين التناغم والتّنافر، أن يلمح وهج

(١) الطّريقة الموسيقيّة التي ابتكرها النّمساوي أرنولد شونبرغ.

حياةِ طفلةٍ تمشي فرحة، تلعب في مرحٍ، تضحك بلا تحفّظٍ، وتغنّي بأعلى الصّوت.

الحركة الثانية التي بدأت بسرعةٍ ذات عنفٍ قلّ نظيرُه، تشيرُ، بحسب النّص المكتوب في البرنامج، إلى اندلاع الشّر ومسيره بلا هوادة صوب الموت. كان كمان ميدوري يامازاكي يتلوّى من الألم، مستلّاً نفسَه من انتشار الأوركسترا الصّوتي الغامر: بدا له أنّ آلات التشيلو تشير إلى الوعيد الصّامت الكامن في طيِّ المرض الذي انطلقَ، والآلات النّحاسيّة تثيرُ القوّة الخطيرة للحالة المرضيّة، والدّفوف تُلمِع إلى ذروة الآلام التي تستولي على جسد الصبيّة. وحركات النّقر الأكروباتية التي تقوم بها العازفة على الأوتار بأصابع يدها اليمنى كانت بمثابة نقطِ آلامٍ حادّة. فجأةً استقرَّ الصّمتُ: إنّها لحظةُ اقتباس كانتاتا (أغنية) باخ الشّهيرة O Ewigkeit, du Donnerwort (BWV 60 **(أيا أيّتها الأبديّة، أنت يا كلاماً صاعقاً**) التي يُقحمُها الكمانُ، وتواصلُها آلتا الكلارينيت. وابتداءً من تلك اللّحظة تنطلق الموسيقى منزلقةً في هدوءٍ على أرضِ سكينةٍ، لتبلغ نهايةً هادئةً، حيثُ لا يكفّ الكمان عن الصّعود من نوتةٍ إلى نوتة صوبَ اللامتناهي المتبدّدِ في الصّمت...

١٢

طال الصّمتُ... ولم يجرؤ أحدٌ على قطعه. ثمّ أخيراً صفق أحدهم بيديه في استحياءٍ، وقد نفد منه الصّبر والانفعال. فتبعته البقيّةُ. وكانت النّتيجة شَلّالاً من التّصفيق لا ينقطع.

١٣

ظلّت الهتافات تنهال. وتضاعفت حين حيّت عازفةُ الكمانِ عازفةَ القيثارة، ومنحتها باقة الورود التي أُعطِيَتها. ثمّ اختفت العازفةُ للمرّة الرّابعة في الكواليس بعد أن انحنت مراراً تحيّةً لتصفيق الجمهور الذي تضاعف. وسار في إثرها قائد الأركسترا.

فلمّا تراخى التوتّر، ألفى ري وهيلين نفسيهما في حالٍ من الوهن، بينما حشدُ الجمهور يطلق العنان لنفسه مُضاعِفاً من هتافات الإعجاب.

وأخيراً عادت الموسيقيّةُ، بمفردها، حاملةً في يدها مكروفوناً بلا خيط. وبدأت في الحديث. كان صوتُها صافياً. بغتةً استقرّ هدوءٌ شاملٌ؛ تبدّدت كلّ الأصواتِ فوراً مثل مياه الأمطار إذ تمتصُّها أرضٌ جافّة وقاحلة.

- شكراً لكم لأنّكم قد حضرتم هذا المساء بهذه الكثافة. بالعادة، لا يتكلّم الموسيقيّون أثناء حفلاتهم. وإن تكلّموا،

فإنّما يفعلون ذلك عبر الموسيقى التي يعزفونَها. لكن اليوم بالنّسبة إليّ يومٌ استثنائيٌّ. أريد أن أحدّثكم عن كماني، عن هذا الكمان الرّائع الذي عزفت عليه اليوم **كونتشيرتو ألبان برِغ «في ذكرى ملاك»**.

سألته هيلين: - هل كنت تعرفُ أنّه كمانُك؟

- نعم. في البداية، حين صعدَت إلى الخشبة حاملةً كمانها، لم أكن متأكّداً، على الرّغم من لون كماني المميّز. لكن ما إن عزفت أولى النّوتات، حتّى تيقّنت أنّه كماني صنْعَة فوييوم، وقوسُك.

- هذا الكمان عهد به إليّ صانعُ كماناتٍ فرنسيّ، السيّد جاك مايار، وهو أيضاً ياباني. واسمُه الياباني، السيّد ري ميزوساوا.

كانت ميدوري تتحدّث ببطءٍ، وبلكنةٍ أقرب إلى الأمريكيّة منها إلى اليابانيّة.

- إنّه كمان من صُنع نيكولا فرنسوا فوييوم، يعود تاريخ صنعه إلى سنة ١٨٥٧، الأخ الأصغر للمعلّم جان باتيست فوييوم. وكان ملكاً لوالد السيّد مايار، السيّد يو ميزوساوا. ذات يومٍ من سنة ١٩٣٨، حُطّم هذا الكمان نتيجةَ عُنفٍ وحشيٍّ...

هكذا حكت ميدوري يامازاكي قصّة كمان يو ميزوساوا بأكملها.

- اعذروني فأنا لا أتحدّث الفرنسيّة بطلاقة. فاسمحوا لي الآن أن أقرأ نصاً كتبته لهذه المناسبة.

أخرجت ميدوري ورقةً بيضاء من جيب سترتها الدّاخليّ، وفتحتها. وفي القاعة بسط يديه صمتٌ عميقٌ يشبه الصّمت الذي يخيّم على معبد من معابد الزِّن الكبرى في كيوتو.

١٤

واصلت ميدوري قراءتها، رافعةً عينيها، بين الفينة والأخرى عن الورقة البيضاء.

- هذا الولد الذي كان يرتجف خوفاً في الخزانة، فأتته يد جدّي تُناوِلُه كمانَ أبيه المكسور، هذا الولدُ صار صانع كماناتٍ وكرّس حياتَه لترميم كمان والده. وعلى هذا الكمان تشرّفتُ بالعزف مساء اليوم بواسطة قوسٍ صنعَته زوجتُه هيلين بيكر. وأجده كماناً رائعاً، يضاهي كمانات ستراديفوس أو غوارنريوس... على أيّ حالٍ، لقد أسرني هذا الكمان صَنعةُ فوييوم-مايار. وأستطيع أن أقول إنّ كمان نيكولا فرنسوا فوييوم الأصلي قد انبعث على يديّ جاك مايار الذي حسّنَه وأغناه، وزادَه فخامةً.

كفّت عازفة الكمان عن النّظر إلى ورقتها.

- إنّ الصّانع حاضرٌ معنا اليوم، بصحبة هيلين. وأراهما من

مكاني هنا... فلا أقدر على مقاومة الرّغبة في أن أقدّمهُما لكُما ... السيّد والسيّدة مايار!

تفاجأ جاك وهيلين وارتبكا من الدّعوة المباغتة وغير المتوقّعة، فقاما من مقعديهما، وعرضا نفسهما لأنظار المتفرّجين الذين تغصّ بهم قاعة **بليِّل**، وتواصل التّصفيق والهتاف، حتّى أشارت ميدوري إشارةً خجولة من يدها للجمهور أن يهدأ.

- لم ينته الحفل بعد. لأنّني أريد أن أزيد قطعتين. ارتفعت عاصفةٌ من الهتاف. انتظرت العازفة حتّى عاد الهدوء، فقالت للجمهور إنّها تريد أن تُسمعهم بدايةً الموسيقى التي سمعها الطّفل ذاك اليوم قبل مجيء الجنود، ثمّ بعدها الموسيقى التي أنصت إليها بانتباه وهو في ظلام الوحدة والخوف داخل الخزانة. وبيّنت لهم ميدوري أنّ المقطع الأوّل الإضافيّ هو **الحركة الأولى من الرّباعية الوترية روزاموند** لشوبرت.

- إنّها تحفةُ شوبرت التي كان السيّد يو ميزوساوا، والد السيّد مايار يتمرّن عليها مع أصدقائه الصّينيّين الثلاثة. جدّي لم يحضر التّمرين كما بيّنتُ لكم من قبل. لكنّه عرف من فم السيّد ميزوساوا أنّ تلك هي المقطوعة التي كانوا يتمرّنون عليها. وما زلت أذكر أنّ جدّي كان ينصت إلى هذه المعزوفة بلا كلل أو ملل، كانت عنده أشبه بالهوس... والآن بتُّ أعرف لمَ.

هُيِّئَت في مقدّمة الخشبةِ ثلاثةُ مقاعد في شكل نصف دائرة. وكانت ميدوري يامازاكي قد اتّفقت مع ثلاثة عازفين من الأوركسترا ليعزفوا الرّباعية الوتريّة. اضطلعت هي بدور الكمان الأوّل، الدّور نفسه الذي كان يؤدّيه يو ميزوساوا. والتحق بها في العزف كلّ من عازف الكمان غالب الشّيخ، وعازفة الألتو جويل كريستوف، وعازف التشيلو تجيان تزانع.

- إليكم الحركة الأولى من **رباعية شوبرت، روزاموند.**

وبينما تموضع كلّ عازفٍ من العازفين الثلاثة واقفاً على مقعده، وضعت ميدوري يامازاكي الميكرفون واتّخذت موضعها للعزف. حيّا العازفون الجمهور، فردّ عليهم الجمهور، نشوانَ من العرض الفريد للعازفة اليابانيّة، التحيّةَ بتصفيقٍ غامر.

جلس العازفون الأربعة، ودوزنوا آلاتهم. وكان كمان ميدوري، صنْعة فوييوم-مايار يلمع ببريقه الكامد مميّزاً وسط الآلات الأخرى ذات اللّون الأنصع المائل إلى الأصفر البرتقاليّ. حبس الحضور، الألْفانِ، أنفاسهم. إنّ أدنى احتكاكٍ ملابس أو صرير مقعدٍ يمكن أن يُزعج العزف. حتّى أنّ الواحد يكاد يسمع تنفّس جاره. الجميع ينتظر انبثاق أولى نوتات شوبرت العائدة من بعيدٍ، من ذاك المساء، من بعيدٍ جداً، من عالمٍ آخر، أو من العالم الآخر، من زمنٍ ومكانٍ بعيدين أقصى البعد، من طفولةٍ مغتالةٍ، من ذاكرةٍ قديمةٍ ممزّقة، مكسورة، معطوبة.

أخيراً، بعد المازورتين الأوليين اللّتين ترنّانِ مثل البقبقة الغامضة

لمياه راكدة، التحق بالعزف كمانُ ميدوري الذي يجمع حولَ روحه ثلاثة أرواحٍ أُخر -روح يو ميزوساوا، وروح الملازم كوروكامي، وروح ري ميزوساوا- منخرطاً برهافةٍ، وإيقاعٍ بطيءٍ هادئٍ، في الشّجن الشوبرتيِّ العميق.
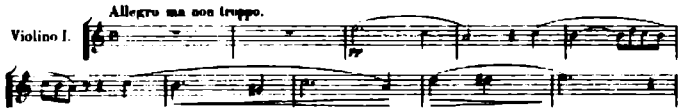
وسط الظّلام الكثيف في قاعة بليِّل الشّاسعة انبثقت في هيأةٍ شبحيّةٍ قاعة الاجتماعات بطوكيو سنة ١٩٣٨، حيث الخزانة الخشبيّة التي لاذ بها الطّفل.

غاص ري في الظّلمات. رجّت ظهرَه رجفةٌ.

١٥

مكتبة
t.me/soramnqraa

شكرت ميدوري الموسيقيّين الثلاثة الذين قبلوا مشاركتها في العزف، بأن صافحتهم واحداً واحداً وهي تحني رأسها لهم مراراً. وبعد مدّةٍ تناولت من جديد المكروفون المتروك على المنصّة، وبإشارةٍ مباشرةٍ حاولت أو توقف عاصفة المديح والإشادة.

- شكراً. لقد حان الوقت الآن لعزف القطعة الثّانية. إنّها مقطوعة يوهان سيباستيان باخ: **الغافوتة على نمط الرُّندة من البارتيتة الثالثة للكمان وحده. لمَ الغافوتة على نمط الرُّندة؟** لأنّها المقطوعة التي عزفها والد السيّد مايار في حضرة جدّي الذي طلب منه عزفَ شيء...

كان ري قد خلع نظّارتيه وجعل يضغط بأصابع يده اليسرى على عينيه المغمضتين. وضعت هيلين يدها اليمنى على ركبتي رفيقها في رقّة.

- أُهدي هذه اللّحظة الموسيقيّة لروح يو ميزوساوا وروح كنغو كوروكامي.

ارتفع التصفيق فوراً في القاعة. اجتاح القاعة صمتٌ عظيم. بذراعين متدلّيتين على امتداد جسدها، كانت ميدوري تمسك ذيل كمانها بيُسراها، وقوسها بيُمناها. أغمضت عينيها. دام التروِّي دقيقةً. كان الأمر بالنّسبة لعازفة الكمان مثل دقيقة صمتٍ تفرضها على نفسها في السّادس من أغسطس على الثامنة والرّبع، وهي تفكّر في ضحايا هيروشيما، في عائلة جدّها التي أُبيدت، وجدّها الذي حمل عارَ النّجاة من فظائع الحرب، تفكّر في القصف الذي تعرّضت له طوكيو في العاشر من مارس من سنة ١٩٤٥، وفي جحيم الانفجار الذريّ. ثمّ فتحت عينيها؛ وضعت كمانها الكامد على كتفها وتحت دقنها؛ ورفعت ببطءٍ ذراعها اليمنى لتضع القوس على الأوتار.

انطلقت المقطوعة بلحن محوريّ (تيمة) مرحٍ، متوثبٍ، متفتّحٍ، كأنّه لحنٌ يرافق صبياً من أبناء المدينة، خرجَ في نزهة إلى البادية، ذات صباحٍ مشمسٍ، تدفعه سعادة الوجود، ويحثّه فضول اكتشاف جمال الطّبيعة المحيطة به. وفي لحظةٍ بعينها، غيّرت الموسيقى اللونَ والأجواء، كأنّما تُترجمُ قلقَ الصبيِّ المكبوتَ إذ يلمحُ غمامةً سوداءَ كبيرةً تلوح بغتةً في الأفق الذي كان قبلَ وهلةٍ فقط مشرقاً. على أنّها ليست إلا غمامةً عابرة. إذ بعدها بقليلٍ عادت تيمة البداية المرحة. كم مرّة، إلى الآن، سمع هذا الموتيف الباسم المتألّق؟ في تلك العودة الملحّة، وتلك الرّغبة في تطريز الشّكل نفسه إلى ما لا نهاية، كانت تُستشعَرُ الرّابطةُ الرّاسخةُ بين المؤلّف ولحنه الصّغير المرح، مثل الارتباط الوجداني اللا مشروط الذي يجمعنا بأغنية تعلّمناها في

طفولتنا، فظلّت تنبض في أعماقنا حيّةً، مثل نبع ماءٍ لا ينضبُ، نبعٍ يظلّ متأهّباً لينفجر في أيّ لحظة من لحظات عمرنا، من الطّفولة النّاعمة وحتّى الشّيخوخة المتقدّمة...

ولمّا عادت الموسيقى، للمرّة الخامسة، إلى التيمة الأولى، وتباطأت تباطؤً ملحوظاً كي تبيّنَ انتهاءَها، شعر ري بإحساسٍ غريبٍ يستولي عليه، فيحرّرُه من الزمان-المكان المتجمّد فيه منذ طفولته، ويُنزلُه أخيراً في عالمه الفعليّ، عالمه الذي يتقاسمه مع هيلين والمحيطين به. دفعت النّوتات الأخيرة العازفة إلى أن ترفع بهدوءٍ ذراعها اليمنى صوب الأعلى.

انطلق من كلّ جانبٍ وابلٌ من هتافات «برافو» والتّصفيق. رفع الصّانعُ رأسَه ليتأمّل العازفة تنحني عميقاً. كان عقله وقلبه في حالٍ من الاضطراب، منعه من أن يقوم بأدنى حركة. لم يستطع إلّا أن يلتفت إلى هيلين التي بعدما كفّت عن التّصفيق في حيويّة، أخرجت من حقيبتها منديلَ ورق.

ظلّت القاعة كلّها في حالٍ من الوجد عزَّ نظيرُها. حتّى أنّ ميدوري يامازاكي لم تكفّ عن الحركة ذهاباً وإياباً بين الخشبة والكواليس. وكان عازفو الأركسترا قد بدأوا يتفرّقون. ولمّا عادت لتحيّي الجمهور آخر تحيّةٍ، كانت الخشبة قد خلت إلّا من ثلاثة أشخاص أو أربعة. إذّاك لاحظ ري، أقصى خشبة العرض، قريباً من القيثارة التي يوشكون يرفعونَها، رجلاً في الخمسين من عمره، يرتدي سترةً رماديّةً بسيطة، جالساً أرضاً، خلف كراسي مَقرأ

الكمانات الفارغة. كان الرّجل يحدّق أمَامَه رافعاً عينيه قليلاً صوب مقاعد المدرّج. نهض الرّجل. ثمّ جعل يمشي ناحية البهو. وبين الفينة والأخرى كان يلتفت إلى القاعة، مترنّحاً في مشيته، مثل شيخٍ أو مثل مريض يجرّ معه عمود تقطير. قام ري من مقعده، وانحنى إلى الأمام وهو يعيد نظّارتيه على أنفه. غمغم وهو يبتلع ريقَه: - أوتوسان!

١٦

سمعت هيلين، الجالسة إلى جانب جاك، الكلمة المجهولة التي غمغم بها.

- ماذا تقول؟

أجابها جاك وهو يلتفت إليها: - ... لا شيء... لقد اختفى، لم يعد هنا.

- من؟

- أبي، لقد كان هنا، منذ قليل، أوتوسان...

خاتمة

١

في اليوم التّالي للحفل، ذهب ري وهيلين لزيارة ميدوري وأمّها. وكانوا قد ضربوا موعداً في البهو الواسع لفندقهما، على السّاعة الخامسة والنّصف. جلس ري وهيلين على كنبةٍ في انتظار أن تلتحق بهما ميدوري وأيوكو. وبعد دقائق من موعد اللّقاء وصلت اليابانيّتان. قدّم إليهما ري هيلين. شكرت هيلين العازفةَ على الحفل الرّائع، ثمّ بخاصّة على عنايتها اللّطيفة بشغل جاك وشغلها. شربوا معاً شراباً مُقبِّلاً في المطعم البار الواقع في مركز البهو. اختاروا جميعاً كأس شامبانيا احتفالاً بنجاح الحفل والحدث الاستثنائيّ الذي يمثّله في حياة ري كما في حياة ميدوري.

قالت هيلين: - نخبك!

ردّدت أيوكو بالفرنسيّة في خجل: - نخبك!

- نخب روح الملازم كوروكامي وروح والدي!

قالت ميدوري: - نخب الرّوح التي انبعث، روح فوييوم مايار

أو فوبيوم ميزوساوا الذي جمع الرّوحين اللّذين اتّصلا فيما مضى، واليوم جمعانا كلّنا هنا!

قرعوا نخب كؤوسهم الأربعة. وقرعت ري وميدوري مرّةً ثانية قبل أن تشرب جرعةً من الشامبانيا. جرى الحديث أساساً بالفرنسيّة، لكنّ ري كان يتحدّث أيضاً باليابانيّة حتّى لا تُهمّشَ أياكو.

- شكراً من أعماق قلبي على هذا الحفل. لقد أثّر فيّ كلّ تأثير كما لاحظتِ بلا شك... متى قرّرتِ أن تعزفي على كمان والدي؟

- ما إن بُرمِج الحفلُ. يعني منذ سنةٍ ونصف. أنا أحبُّ حقّاً كمانك. منذ أن عهدتَ به إليَّ، بدأت أتخلّى شيئاً فشيئاً عن كماني الستراد. الآن صرت أعزف أغلب الوقت على كمانك.

- يشرّفني هذا. أظنُّ أنّ جدّك وأبي قد كانا حاضرين في الحفل... عبر القطعتين الإضافيّتين طبعاً، ولكن أيضاً عبر اختيارك كونتشرتو برغ، ما دام جدّك كان يأمل في أن تعزفيه ذات يومٍ...

- صحيح، ذلك ما قاله لي مرّاتٍ عديدة. أظنُّ أنّه كان يسمع، فيما وراء آلام مانون غروبيوس، كلَّ آلام العصر الذي أُلّفَ فيه الكونشورتو... إنّ عزف «**في ذكرى ملاك**» كان بالنّسبة إليّ بمثابة طريقةٍ استحضرُ بها عصر أبيك وجدّي... كلّ تلك السّنوات المؤلمة أقصى الآلام...

قالت هيلين التي تابعت الحديث بين الصّانع والعازفة، الحديث الذي كان خليطاً بين الفرنسيّة واليابانيّة: - إنّ الموسيقى التي كانت تنبعث من كمانك كانت موسيقى قادرة على إيقاظ الموتى...

كرّرت ميدوري: - قادرة على إيقاظ الموتى؟

ثمّ التفت إلى أمّها تترجم لها العبارة.

وضّحت هيلين وهي تنظر إلى رفيقها: - نعم، كانت الموسيقى متجسّدةً لدرجة أنّها كانت قادرة على استدعاء الأرواح من مملكة الموتى...

- الحقّ، أنّي أمس، خلتُ نفسي أرى والدي... لقد رأيتُ أبي حقاً...

شدّد ري على كلمة «حقّاً» وترجم بنفسه لأيوكو ما قاله لابنتها.

- كان هناك، بعد انصراف العازفين، جالساً على الأرض، مباشرة خلف مقاعد الكمانات الأولى...

كان اللّيل الرّبيعيّ ينزل في هدوء. وكانت الكؤوس فارغةً باستثناء كأس أيوكو. واقترح عليهم ري الذّهاب للعشاء.

- لقد حجزتُ طاولةً في مطعمٍ غير بعيد من هنا. نستطيع الذّهاب إليه على الأقدام.

قاموا من مكانهم. وضع الصّانع يده اليمنى على كتف العازفة.

- احتفظي بهذا الكمان. فهو بحاجةٍ إليك.

- مع قوس هيلين؟

أجابتها صانعة الأقواس: - نعم بالطّبع.

ثمّ ضمّت إليها ذراع رفيقها كأنّما يمنعها عن تقبيله شيءٌ من حياء.

واصلت: - إنّ هذا الكمانَ أبوهُ، ولكنّه في الآن نفسه طفلُه. واليوم يوم زفاف ابنه أو ابنته... سوف يفارقه، أو يفارقها، فراقاً بيّناً... يفارقه بأن يعهد به إليك. أظنُّها مناسبةً سعيدةً بالنّسبة إليه... بالنّسبة إلينا... أخيراً يلج جاك-ري مرحلةً جديدةً من حياته...

أدار صانع الكمنجات وجهه إلى هيلين، وقبّلها على جبينها في رقّة.

٢

كتبت الصّحافة مقالات عديدة في حفل ميدوري يامازاكي. لقد جذب العزفُ المتألق والعبقريّ لكونتشيرتو ألبان برغ، والمقطوعتين الإضافيّتين، زيادةً على سرد قصّةٍ خارقة، انتباهَ شريحةٍ واسعةٍ من الجمهور، تتجاوز الدّوائرَ الضيّقة لهواة الموسيقى. كما أنّ أخبار الحفل قد سلّطت الأضواء على صانع الكمانات الفرنسيّ الياباني جاك مايار-ري ميزوساوا.

وقد اتّصل به كثيرٌ من الصّحفيّين، خاصّة منهم صحفيٌّ بمجلّة **موسيقى وكلمات** الشّهريّة، حيث اقترح عليه تقديم بورتريه له. وقد وافق جاك على مقابلة الصحفيّ مارسيل غودان. فتحادثا طيلة ثلاثة أيّامٍ في مشغل صانع الكمنجات. وفي كلّ مرّة يدوم حديثهما ساعتين. الصحفيّ يدوّن ملاحظاتٍ، ويسجّل بمسجّلٍ رقميّ في آنٍ. وبإجابته عن أسئلة الصحفيّ حكى جاك مايار قصّة كمان يو ميزوساوا كاملةً. وانتهى الحوار إلى الحديث عن الشّخصيّة الغامضة التي كانت هناك، على الخشبة الفارغة، عقب حفل ميدوري الباريسيّ.

- رأيتَ إذن أباك؟

- نعم. كان يبدو متعباً، لكنّه كان كما أذكره منذ ستّين سنةً... يرتدي ملابسه التي كان يرتديها في ذلك اليوم. لقد لامست موسيقى ميدوري الميّت، أتت به إليّ. نعم، لقد صار عائداً، لقد عاد، إن جاز لي القول... ولعلمك، هذه أشياء تقع...

- ...

- ...

- ... شكراً على هذا الحوار الشيّق. سأحاول إنجاز بورتريه لك، بالتّركيز على انبعاث الكمان.

انتاب جاك الانطباع بأنّ مارسيل غودان يشدّد على كلمة «انبعاث».

- افعل ما بدا لك... فأنا أثق فيك.

- شكراً. سأرسل إليك النصّ حال إتمامه. وستعطيني رأيك فيه. ومن ثمّة أنجز الصّيغة النّهائية آخذاً بعين الاعتبار ملاحظاتك واقتراحاتك.

- اتّفقنا. ممتاز.

أسبوعين بعد ذلك، توصّل جاك بمقال طويلٍ، من خمس صفحاتٍ، عنوانه «**روحٌ كسير- السّيرة المذهلة لصانع كمنجاتٍ ياباني-فرنسيّ**». وتحت العنوان العريض صورةٌ للمُحاوَرِ مرتدياً

مئزر الشّغل، وصورة المشغَل، التقطهُما الصّحفيّ. وفي المنطقة الوسطى من الصّفحة الثالثة، على امتداد ثلاثة أعمدة، يتربّع كمان نيكولا فرنسوا فوييوم الذي كان جاك قد صوّره عند الانتهاء من ترميمه يوم ١١ نوفمبر ١٩٨٢، أي بعد أربعٍ وأربعين سنةً من محاولة التّدمير التي كان ضحيّةً لها.

سمح جاك لنفسه بأن يصحّح بعض الأخطاء التي طالت الوقائع، وكذا صيغتين أو ثلاثاً رآهما لا تناسبان طابع الحياء والتّحفظ الملازم له. ثمّ انتظر ليلةً، وقرأ المقال مجدّداً ثلاث مرّاتٍ. وبعد القراءة الثالثة كان ثمّة المزيد من التّفاصيل المزعجة في نظره. فاضطرّ إلى قراءته مرّةً رابعةً، ثمّ بعدها فقط أعاد إرساله إلى مارسيل غودان، شاكراً إيّاه على جهده في تحرير الحوار الذي دار بينهما.

ومرّت ثلاثة أسابيع، لم يخطر فيها ببالِ ري، ولا للحظةٍ، مقالُ مجلّة **موسيقى وكلمات**. الحقّ أنّه لم ينتبه لمرور الوقت، إذ انكب، ثلاثة أسابيع، بكلّ ما فيه من جهد على الشّغل؛ ليس شغل الكمنجاتِ، وإنّما شغل التّرجمة، إذ قرّر إتمام الترجمة التي انخرط فيها منذ سنواتٍ، نقصد ترجمة كتاب **أخبرني كيف ستعيش** لغنزابورو يوشينو.

٣

عرف ري ميزوساوا، في المحصّلة، ثلاثة صورٍ للأب (أو للأبوّة) رسّخت وجوده في هذه الحياة، وهذا دون ذِكر فيليب وإيزابيل مايار اللّذين أنقذاه من جحيم الحرب. ثمّة أوّلاً، كما نيكولا فرنسوا فوييوم الذي صار بمثابة العمود الفقريّ لحياته صانعَ كمنجاتٍ، ولحياتِه عامّةً؛ ثمّ كتاب غنزابو يوشينو الذي ظلّ يحادثه على الدّوام بدلاً من أبيه الغائب. ومن هنا قراره في أن يبعث صوت الأب عبر التّرجمة.

لكن، ما كان العنصر الثالث للصّورة الأبويّة؟ إنّ الكمان المكسور وكتاب يوشينو هما الشّيئان الوحيدان اللّذان استطاع أن يحفظهُما من حياته اليابانيّة التي انقطعت بوحشيّة وعنفٍ ذات يومٍ من شهر نوفمبر ١٩٣٨، وصارا إثر ذلك حاضرين على الدّوام، أمامَه، ومعه، وفيه، ضمن حياته اليوميّة الفرنسيّة. سنواتٍ بعد ذلك، انضافَت الكنزة الورديّة ورواية تاكيجي كوباياشي إلى مجموعته الشّخصيّة من الأشياء الشّاهدة على الماضي المغتال. لكن ليس بوسعنا أن نقول إنّ

الشّيئين الأخيرين قد رافقاه خلال السنوات الطّوال التي شهدت بناء شخصيّته.

بخلاف كمان والده وكتاب يوشينو، ثمّة شيءٌ لم يستطع ري الحفاظ عليه، وظلّ يأسف له. هو في الواقع ليس شيئاً وإنّما كائناً، نفساً حيّةً: كلب الشّيبا الذي ظهر له ظهوراً غامضاً، ذاك الأحد، ساعة هبوط اللّيل، في طريق عودته وحيداً إلى المنزل. وقد وافق والداه الجديدين، فيليب وإيزابيل، على أن يحتفظ بالكلب المدّةَ القليلة التي بقيت لهم في العاصمة اليابانيّة. لكن حين ترك ري اليابان إلى الأبد، مع والديه الفرنسيّين، اضطرّ إلى التخلّي عن الكلب الذي كان قد سمّاه مومو. وقد عُهد بالكلب إلى بعض جيران مايار. كان فراقاً حسرةً. ففي خضمّ معركته ضدّ الإحساس بالتّقصير، انتهى ري إلى القول بأنّه، على خلاف ما يحدث في الحكايات العجيبة، حين تتحوّل كركيّ إلى امرأةٍ حسناء لكي تشكر الرّجلَ الذي أنقذَها، فإنّ والدَه هو قد تجلّى في هيأة مومو. ومع ذلك اضطرّ إلى أن يُفارق أباه مرّةً ثانيّة، إذ فارقَ مومو. انفطر قلبُ ري. وقد وقف فيليب وإيزابيل على عمق الجرح وألمه؛ الجرح الذي ظلّ طويلاً مفتوحاً، حيّاً، دامياً. كيف السّبيل إلى مداواة هذا الجرح الذي لا يشفى؟ كيف السّبيل إلى تخفيف حدّته؟ فاهتديا إلى أن يُهديا ابنَ يو ميزوساوا، وقد صار ابنهما، جرواً وُلد حديثاً لأسرة أخت إيزابيل. وقد رافق الكلبُ، الذي سُمّي أيضاً مومو، ري طيلة فترة مراهقته. ولمّا بدأ ري مسيرته صانع كمانات في ميركور، كان الكلبُ قد أسنَّ وشاخ، ودنا من

أيّامه الأخيرة. ولم تراود ري الرّغبة في أن يتبنّى كلباً آخر، إلا حين انتهى من ترميم كمان والده. وقد لاحت له فرصة أن يتبنّى كلبَ شيبا. فلم يقاوم رغبة أن يعيش معه. ولم يكن وارداً تسمية الكلب اسماً آخر غير مومو. الحالُ أنّ كلّ كلاب الدّنيا، ذكورها وإناثها، كانت تسمّى عند ري مومو، مثلما أنّ كلّ كمانات الدّنيا كانت أبناء عمومةٍ، أو حتّى إخوةً، لكمان فرانسوا نيكولا فوييوم.

وفي اللّحظة التي كان فيها جاك مايار يراجع مقال مجلّة موسيقى وكلمات، وينكبُّ انكباباً على ترجمة غنزابورو يوشينو، كان قد بلغ عدد الكلاب التي تبنّاها، توالياً، وسمّاها مومو، أربعةً.

٤

أخيراً صدر الحوار «**روحٌ كسير - السّيرة المذهلة لصانع كمنجاتٍ يابانيّ-فرنسيّ**». وقرأه ري دفعةً واحدة. وبالطّبع خطر بباله أن يترجم الحوار إلى اليابانيّة، فيُرسله إلى لِن يانفن في شانغهاي. وأمضى أسبوعاً بأكمله في القيام بذلك. وما إن أنهى الترجمة حتّى عجّل بإرسالها إلى حفيد اخت يانفن مع رسالةٍ يحكي فيها وقائع حفل ميدوري الباريسيّ. لقد مضى على زيارته إلى شانغهاي أكثر من عشرة أشهر. وكان لمّا وصلته رسالة ميدوري يامازاكي تُعلمه بحفلها في قاعة **بلِيِّل**، سارع بالكتابة إليها يشاطرها فرحته في حضور حفلٍ تعزف فيه حفيدة الملازم كوروكامي. وقد أجابته يانفن باقتضاب: «أنا سعيدة لأجلك، إذ تلوح لك هذه المناسبة للقاء إلهك الأسود مرّةً أخرى».

ثلاثة أيّام بعد إرسال ترجمته توصّل ري برسالة من حفيد أخت يانفن، يعلمه باستلام الرّسالة. كانت رسالةً مقتضبة جداً.

ثمّ الصّمتُ. صمت دام تقريباً أسبوعين. وذات يوم، وقد كاد مقال مجلّة **موسيقى وكلام** ينمحي من ذهن صانع الكمانات، وصله طردٌ من الصّين. كانت رسالة من يانفن، مكتوبة على ورقتين من حجم A4، لونُهما رورديٌّ شاحب، مطبوعتين على برنامج وورد.

١٧ مايو ٢٠٠٧

المستشفى البلدي بشانغهاي

عزيزي ري-سان،

لا تتخيّل أيّ سعادة شعرت بها وأنا أقرأ «**روحُ كسير- السّيرة المذهلة لصانع كمنجاتٍ ياباني-فرنسيّ**». شكراً لأنّك ترجمته لي.

زيارتك لي في المستشفى غمرتني سعادة لقد مكّنتني من القيام بما كان عليّ القيام به قبل مغادرة هذا العالم: أن أعطيك الكنزة الورديّة وكتاب تاكيجي كوباياشي. ولو أنّك لم تمنحني هذا الإمكان، لرحلت ونفسي مليئةٌ حسرةً. كانت روحي لتظلّ إلى الأبد، إن جاز لي القول، مسمّرةً إلى جدارٍ خشنٍ في هذه الدّنيا، مثل طيّارة ورقٍ رُبطت إلى جذع شجرة.

لقد كانت قراءة مقال **موسيقى وكلمات** بالنّسبة إليّ فرصةً لإعادة التفكير في كلّ ما قلته لي أثناء ذاك النّهار الذي لا ينسى، النّهار الذي قضيناه معاً في غرفتي بالمستشفى. لقد منحتني فرصة أن أسايرك، خطوةً خطوةً، في مسيرتك صانعَ كمنجاتٍ، المسيرة التي بُنيت وشيدت حولَ كمان يو. لقد فقدتَ أباك يوم ٦ نوفمبر ١٩٣٨، ضمن ملابساتٍ مأساويّة، لكنّك عشت معه طيلة حياتك عبر الكمان الذي تركه لك، وبفضل الملازم **الإله الأسود**.

وبفضل سردك وقائع الحفل الباريسي الذي قدّمَته ميدوري يامازاكي، منحتني الفرصة لأن أحضر، بفكري، هذا الحدث التّاريخيّ الذي جمع الشّخصيات الثلاثة الرّئيسة في مأساتنا! أشكرك يا ري-سان على عنايتك بإطلاعي على تفاصيل تلك الأمسية. أصدّقك، بلا قيد أو شرط، حين قلت لي إنّ يو قد عاد إلى عالمنا، إذ ناداه صوتُ كمانه، ثمّ رحل بعد أن سمع المقطوعتين الإضافيّتين اللّتين تجسّدانه. لقد كانت روحه معلّقةً في مكانٍ ما، في سقف منزل، أو غصن شجرة، أو درجة سلّم حجريّ، ولا بدّ أنّه عاد باحثاً عنها... كذلك الإله الأسود، الملازم كوروكامي، كان حاضراً على الأرجح، إذ دعته مقطوعة **الغافوتة على نمط الرُّندة** لباخ، وأيضاً **كونتشيرتو «في ذكرى ملاك»** لألبان بيرغ. يروقني التّفكير في أنّ يو والإله الأسود قد التقيا مجدّداً بمناسبة الحفل بعد سنواتٍ طويلة قضياها في صمت الموت. لقد ألّف برغ هذه الموسيقى المفجعة سنة ١٩٣٥، أي ثلاث سنواتٍ فقط قبل أن تنزل علينا الكارثة... بالطّبع لم نكن نعرف. إنّ الآلام التي ينطوي عليها هذا الأثر الموسيقيّ، والصّلاة الصّامتة التي تنبعث منها شيئاً فشيئاً هي ربّما التوقيع الذي خلَّفَهُ عصرُنا... أتساءل ما إذا كانت هذه الفكرة هي ما كان يشغل قلب الإله الأسود.

لقد بيّن الطّبُ مدى التقدّم الذي بلغه، إذ عمل على إطالة حياتي إطالةً غير متوقّعة. وأوّل المتفاجئين طبيبي المعالجُ. لكنّ للتقدّم الطبيّ حدودَه، إذ أحسبُني هذه المرّة قد بلغت نهاية أيّامي. أكتب لك هذه الرّسالة، دائماً بمساعدة حفيد أختي المخلص، وأظنّها آخر رسائلي إليك. أنا راحلةٌ عنك يا عزيزي ري-سان. إنّ حياتي، التي تمنّيتُها حياةً أخرى غير هذه، قد بلغت محطّتها الأخيرة. إنّها خَلاصٌ تملؤه الحسرات. الموت، لمن يعيشونَه، تجربةٌ مؤلمة. لكنّ حياتي أنا ألمُها مخفّفٌ، ألمٌ وجد

عزاءَه في ظهورك المعجز في حياتي، ظهورك الذي غيّر من حياتي التي عشتُها بلا حياة، حياتي المعطوبة إلى الأبد، حياتي التي اغتالها الاختفاء المفاجئ والوحشيّ ليو الذي كنت متعلّقة به، وإن كنتُ أحسبه لم ينتبه إلى ذلك. لذا أنا سعيدةٌ لأنّني فكّرت في البحث عنك، وقرّرتُ الكتابة إليك. لقد أُضيئت حياتي في نهايتِها، أضاءَها حضورك الذي أعاد لي يو في صورة الكمان الذي رمّمتَه وبعثتَه إلى الحياة بعدما كان قد اختفى من وجودي، ولم أحفظ منه إلّا ذكرى منكوبة وصورة جنائزيّة.

تجد هنا، مع الرّسالة، صورتان حفظتُهما بعناية. أولهما صورة الرّباعي الوتريّ الصّيني-الياباني. وقد التقطناها أثناء تمرّننا أوّل مرّة على عزف روزاموند، يوم تأسيس الرّباعيّ. أبوك، عازف الكمان الأوّل، هو أكبرنا سنّاً؛ ويوجد أقصى يسار الصّورة. وتراه حاملاً كمانَه صَنْعةَ نيكولا فرنسوا فوييوم. وفي الصّورة الثّانية، تراني أنا برفقة والدك. هذه الصّورة التقطها لنا شِنغ، عازف التشيلو، يوم أعارني يو الكنزة الورديّة. أنا أرتديها في الصّورة، فهل تعرّفت عليها؟

كان بوسعي أن أعطيك الصّورتان يوم زرتني في المستشفى، لكنّني لم أستطِع. منعني طبعي الخجول من أن أقوم بذلك تلقائياً. لكن اليوم، وقد أيقنتُ أنّها آخر فرصة لي لأعطيكهُما، فإنّنا أفعل من غير أيّ خجل. بإمكان الصّورتان أن تحترقا معي، في تابوتي، لكنّي أظنّ أنّ بوسعهما أيضاً أن تجدا مكاناً في ملفّ حياتك...

أنا راحلة عنك يا عزيزي ري-سان، آخذة معي حزناً لا حدّ له، حزناً أحمله منذ زمنٍ بعيد، الحزنُ الذي تعبّر عنه، في المحصّلة، روزاموند شوبرت.

وداعاً، وشكراً مرّةً أخرى.

さようなら. そしてもう一度, ありがとう (Sayoonara, soshite mooichido, arigatoo)

لِن يانفن
林硯芬

السّطر الأخير، وكذا اسم لِن يانفن، كان مكتوباً بالحبر الأزرق، كتابةً جميلةً، وإن علاها شيء من اضطرابٍ، بخط يد صاحبة الرّسالة نفسها.

وبعد ثمانية أيّامٍ من هذه الرّسالة، تلقى ري رسالةً قصيرةً من عند حفيد الأخت يعلمه فيها بوفاة خالة أمّه. لقد رحلت، وحيدةً، منذ ساعاتٍ، أثناء اللّيل، من غير أن ينتبه إلى رحيلها أحد.

وفي اليوم نفسه علم جاك مايار أنّ لجنة القراءة لدار نشر كبيرة قد قبلت نشر ترجمته كتاب «**قُل لي كيف ستعيش**».

٥

مكتبة
t.me/soramnqraa

كانت السّاعة الثّانية صباحاً. ري جالس على مقعد الصالون الصّغير، يرتاح ويشرب قهوة. في يده رسالة النّاشر. قام واثباً ليقصد غرفة المعيشة. نزع مئزرَه الأزرق الكحليّ، وتركه بإهمالٍ على الأريكة. فتح باب الدولاب الكبير الذي يحفظ فيه صُورَ وذكريات الأشخاص الذين رحلوا عنه، مؤخّراً أو منذ زمنٍ بعيد، الأشخاص الحاضرين أبداً، والذين لن ينساهم البتّة: أبوه، أمّه، بعض معلّمي صناعة الكمان في ميركور وكريمونة، فيليب وإيزابيل مايار، مومو ١، مومو ٢، مومو ٣، الملازم كوروكامي الإله الأسود، لِن يانفن... كان مذبحَ معبدٍ، مذبحاً فعلياً، لكنّه لا ينتمي إلى أيّ عبادة. إنّ جاك مايار، أو ري ميزوساوا، رجلٌ بلا دين. لا يؤمن في أيّ حياةٍ بعد الموت. ما الذي سيبقى في النّهاية، بعد نهاية كلّ شيء، بعد نهاية الحضارة، والإنسانية، والكوكب، والمجموعة الشّمسيّة؟ كلّ شيءٍ سيختفي، سيتبدّد، سيُنسى. أليست الحياة في نهاية المطاف مذبحةً كبرى؟ ما الجدوى إذن في أن نضيف إليها المزيد؟

ما الدّاعي إلى ارتكاب هذه الحماقة الهائلة، حماقة صناعة حيواتٍ أخرى، الحيوات التي لا تُحصى، الحيوات التي تولّدُها الحروب بلا رحمة، حيوات الخنادق، حيوات مخيّمات الإبادة، الحيوات التي تولّدُها القنابل التي تتهاطل من السّماء فتمزّقُك، قنابل هائلةٌ تبلغُ حدَّ القنبلة الذريّة التي تحرق وتفحّم مدينةً بأكملها في ثوانٍ معدودة، وتقيمُ في السّماء فِطراً قبيحاً وشيطانياً هو المنذرُ بالظّهور المباغتِ، المُعمي، المفجّرِ، للنّور الإبليسيّ؟ لمَ كلّ هذه الوحشيّة؟ لمَ كلّ هذه الأفعال القاتلة الفظيعة؟ لكن بسبب كلّ هذا العنف الذي لا مثيل له، وهذه الاغتيالات الناجزة التي لا رجعة فيها، والتي تمنع المرء من أن يعيش، وتولّد حولَه موكباً لا يحدُّ من الأشباح، بسبب ذلك العنف تحديداً يحتاج ري ميزوساوا ضرورةً إلى أن يشيّدَ مذبحاً، مذبحاً يعيد له في المقام الأوّل والدَه المغتالَ، ثمّ جميع الراحلين الذين رافقوه من قريب أو من بعيد. وذلكم ما يبرّر صنعَتَه، فنَّ صناعة الكمان، فنّ استعادة أصوات الرّوح، استعادة الحياة الجوّانيّة، استعادة أشدّ أشكال الشّجن سواداً، وأعمق صُور الفرحِ -بفضل مؤلّفي الماضي والحاضر، وبتوسّط العازفين المميّزين- عبر الآلات التي صار يصنعها بعد سنواتٍ قضاها في التعلّم، وتلمّس طريقه، والتّردّد، والبحث، وبعد جهودٍ كثيرةً صرفها، بشغفٍ وصبرٍ، في دراسة نماذج المعلّمين القدامى، وخاصّة بعد حياةٍ، عادية في المحصّلة، قضاها بأكملها في تصليح وترميم وعلاج كمان والده... إنّ فنَّه إذن، المنذورَ بأكمله لخدمة العواطف البشريّة، ما هو إلّا محاولة لتخفيف الآلام الصادمة التي

تخلّفها الكسور الصّاعقةُ التي تصيب أشدَّ ما يربطنا إلى العالم وإلى الحياة.

في عمقِ رفّ الدّولاب تُرى الكنزة الورديّة، مطويّةً بعناية تحت البلاستيك الشّفّاف، والنّسخة القديمة جداً من كتاب **السّفينة-المصنع**، مسنودةً إلى جدار الدّولاب، وقد تقصّفت صفحاتها وبليت بفعل السّنين. شاهدةُ كنغو كوروكامي المصنوعة من الورق تؤدّي دور المسند للصّورتين الصّغيرتين المصفرّتين الذّابلتين اللّتين توصّل بهما من عند يانفن منذ ثمانية أيّام. وبجانب الصّورتين وضع ري صورةً ثالثةً، صورة العجوز الصّينيّة التي تجاهد لتبتسم، مسنودةً إلى رأس سريرها، صورةً كان قد التقطها لها يوم زارها في مستشفى شانغهاي. وأخيراً، في مقدّمة الرّف، على حامل صغير صورةٌ حديثةٌ بالألوان، لكمان فويّيوم-ميزوساوا-مايار.

شابكاً يديَّ، أقفُ، مسمّراً، مستقيماً مثل سروةٍ عتيقة، أمام جماعة الموتى الغريبة. بحركةٍ حازمةٍ وقاطعة أدسّ رسالة النّاشر، مطويةً إلى أربع، بين صفحات كتاب تاكيجي كوباياشي. في تكتّم دنت هيلين منيّ، إنّها بجانبي، أو بالأحرى، خلفي، متراجعةً قليلاً. هل ترى شفتيّ تتحرّكان؟ أهمس بكلماتٍ غير مفهومةٍ، قطعاً لا تسمعُها. بعد دقيقة تروٍّ طويلة، أُغلقُ الدولاب.

أرتدي ببطءٍ مأزريَ الكحليّ. ثمّ أختفي في غبش مشغلي حاضناً هيلين من خصرها.

شكر

ضدّا على كلّ توقّعٍ، فإنّ الفترة التي اشتغلتُ فيها على كتابة نصّي «Shindemo shinikirenai» الذي نُشر ضمن العمل الجماعي Armistice (هدنة) (منشورات غاليمار، ٢٠١٨)، بإشراف جان-ماري لاكلافُتين، هي الفترة التي خطرت لي فيها فكرةُ **روح الموسيقى الكسيرة**، ومضت متناميةٍ تنامياً مبهراً، أنا أوّل المندهشين له. مع تقدّمي في السنّ، بتُّ أشعر، سواء في طوكيو حيث أعيش، أو في هيروشيما حيث كتبتُ آخر حروف نصّي «Shindemo shinikirenai»، أنّنا محاطون بالأشباح، بالموتى-الأحياء، الذين يعيشون متورّطين في عالم بين-ميتَتَين. من الطّبيعي إذن أن يكون شكري، في المقام الأوّل، إلى جان-ماري. فلولا أنّه جرؤ على أن يدعوني للمشاركة في كتاب الهدنة، ولولا أنّني سارعت بإجابة دعوته، من غير تردّد أو تبلّد، لما قُدّرَ لهذه الرّواية أن ترى النّور.

الفهرس

تَرَوٍّ ٩

I: Allegro ma non troppo ١٧

II: Andante ٧٩

III: Menuetto: Allegretto ١٢٥

IV: Allegro moderato ١٧٩

خاتمة ٢٣١

شكر ٢٥٣

مكتبة
t.me/soramnqraa

telegram @soramnqraa

كم مرّة، إلى الآن، سمع هذا الموتيف الباسم المتألّق؟ في تلك العودة الملحّة، وتلك الرّغبة في تطريز الشّكل نفسه إلى ما لا نهاية، كانت تُستشعَرُ الرّابطةُ الرّاسخةُ بين المؤلّف ولحنه الصّغير المرح، مثل الارتباط الوجداني اللا مشروط الذي يجمعنا بأغنية تعلّمناها في طفولتنا، فظلّت تنبض في أعماقنا حيّةً، مثل نبع ماءٍ لا ينضبُ، نبع يظلّ متأهّباً لينفجر في أيّ لحظة من لحظات عمرنا، من الطّفولة النّاعمة وحتّى الشّيخوخة المتقدّمة.

*****

هذه رواية كلاسيكية؛ لغة أنيقة، حكاية فخمة ومؤثرة. رواية موضوعها الموسيقى، وتوريث التقاليد، والحرب، والوفاء إلى الأصول، والصداقة، وجمال الصّمت الذي يعقب سونيتة لشوبرت.

رواية تُبرز الفنَّ في صراعه مع العنف، الفنّ كمشترك كونيٍّ. الفنُ كمصالحة، وفنُّ المصالحة. باختصار الفنّ ضد الكراهية. في هذه الرواية كثير من الطمأنينة والسلام، على الرغم من الوجع الهائل. وفيها يتحوّل الكتاب نفسه إلى مرهمٍ لطيف، مهدّئ ومؤثر في آن.

الطاهر بن جلّون

壊れた魂

アキラ・ミズバヤシ

أكيرا ميزوباياشي

روح الموسيقى

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING

9 789921 723854

www.takweenkw.com | takween.publishing@gmail.com